قوة الأصفر

عندما يُصبح للثورة لـون

تأليف: ابو الأصفر

تحذير !!

لا تقرأ هذا الكِتاب إذا كانت أفكارك مُستنسخة.

لا تقرأ هذا الكِتاب إذا كنت تصدق كل ما تراه.

لا تقرأ هذا الكِتاب إذا كانت لديك أحكام مسبقة.

لا تقرأ هذا الكِتاب إذا كنت تخشى التجول في عقول الآخرين

حضر معي عدة الرسم، سنبدأ سويا بشراء الأدوات الكافية لرحلة انكشاف ملامح أبو الأصفر ومعشره، سأساعدك في تحديد الصفات ووصف الملامح وسأرشدك على أسهل الطرق التي تتعرف من خلالها على ذاتك.
في الطريق الى اكتمال هذه اللوحة ستصادف شتى العلوم والمعارف والأحداث، بين السياسة وعلم النفس والاقتصاد وعلم الاجتماع سيحمل فان كوخ الرسام الهولندي الشهير شعلته الصفراء يعلن بدء رحلتنا معا

هل أنت مستعد الان؟

إهداء

لا أفكر كثيراً في هذا الإهداء، فليس عندي من يتلقاه سواهما:
إلى زنوبة التي قرأته قبل الجميع، وتخلّت عني قبل أن أكمله.

إلى معشر الأصفر الذي يعرفني حتى وإن كنت عارياً من الهوية والأوصاف،
وإن كان هذا الكتاب لا يحتوي على اسماً صريحاً.

المقدمة

انطلقت على منصات التواصل الاجتماعي في أواخر عام 2018 أول وأكبر صفحة نقد عراقية ساخِرة للسلوكيات والظواهر الاجتماعية. بينما كان المجتمع يركز على نقد الأزياء والإطلالات والمظهر العام للمشاهير، تخصص مشوار (أبو الأصفر) بجوهر المرء وداخله بعيداً عن مظهره الذي لن يؤثر على أي منا.

كانت هذه المنصة مُحددة بنبذ السلوكيات الطائشة والخرقاء التي تصدر عمن هم في واجهة إعلامنا وقنواتنا التلفزيونية بل وحتى شاشات هواتفنا .

منذ زمن وأنا أومن بمقولة الدكتور علي الوردي حين قال إنك إذا ما أردت أن تعرف الاتجاه الحضاري السائد في المجتمع ومصيره، انظر إلى الأشخاص الذين يقدرهم أفراد ذلك المجتمع.

كان الهدف من إنشاء هذا الكيان المستقل هو تقويم سلوك المشاهير والأشخاص الذين يحظون باهتمام كبير من قبل المتابعين على مواقع التواصل الاجتماعي. لأن قيام أحدهم بسلوك سلبي أمام الآلاف من متابعيه يعني استنساخ هذا الفعل لآلاف المرات واتخاذه مثالاً يُحتذى به لدى كثير من الناس في الوقت الذي يجب أن يُنبذ فيه هو وفعله.

واجه هذا المشروع في بادئ الأمر مقاومة شديدة من قبل محبي الشخصيات المستهدفة وتطورت الأمور لاحقاً لتصل إلى تهديدات واضحة وصريحة من قبل الشخصيات نفسها.

ولأن صفحة (أبو الأصفر) تقمصت شخصية وهمية مجهولة فإن الوصول إلى صاحبها أصبح مع مرور الوقت ضرباً من ضروب الخيال .

وحينما نفدت كل الخيارات أمام تبديد هذا الكيان، اتجهوا أخيراً إلى الحلول التقنية والتي تجسدت بتأجير مخترقين محترفين للقيام بإغلاق المنصات التابعة (لأبو الأصفر) وإنهاء وجوده مهما كان الثمن.

نجحت هذه العملية مراراً وتكراراً فمنذ العام المذكور وحتى تاريخ كتابة هذه السطور، أغلقت عشرة مواقع متسلسلة تفوق أعدادها مجتمعة أكثر من خمسة ملايين متابع حقيقي من كل بقاع الأرض.
لكن السر وراء الاستمرارية والبقاء على الرغم من عملية تكميم الأفواه التي مورست كان مدهشاً. فهمنا مع مرور الوقت أن (أبو الأصفر) لم يكن شخصية مجهولة أعجبت الملايين فحسب، بل هو فكرة حية نبتت في رؤوس الناس و تناقلوها دون إدراك أو شعور، أن تُعجب بأحدهم لا يعني التأثر العميق به وبأفكاره. فبعد سنتين من موعد الانطلاق، أصبح اسم (أبو الأصفر) على لسان العراقيين ضد كل مشهد يُجسد قلة الحياء أو الأدب في أي مكان كان. اذ استحال أبو الأصفر الى ضمير مشترك في وجدان العامة، يصوب الهنات السلوكية ويشخصها بدقة وبشرف. ونظراً للمصداقية العالية التي تمتع بها هذا المجهول، أصبح مرجعاً لحل النزاعات ومختلف الإشكالات التي تحصل على كافة الأصعدة والمجالات. اذ ان الثقة التي مُنحت لهذه الشخصية غير المعروفة لم تُمنح لغيره من المعروفين حتى يومنا هذا.

بعد إتمام أكثر من أربع سنوات من العمل والتوعية المستمرة، تغيرت مفاهيم مجتمع بالكامل. وإن كان الهدف في بادئ الأمر يقتصر على نقد الأفعال السلبية التي تصدر عن المشاهير، إلا أن الأمر أخذ منحنى واسعاً لم

يكن في الحسبان. فقد قامت صفحة (أبو الأصفر) بإطلاق أكبر الحملات الاجتماعية التي تساعد المجتمع على الارتقاء فكرياً وسلوكياً وأخص بالذكر منها حملة (ثقف نفسك)، والتي كان الهدف منها نبذ السلوك الهمجي الذي يتخذه بعضهم في التخاطب على منصات التواصل وعدم السماح للمتطفلين باستخدام كلمات خادشة للحياء أثناء إبداء الرأي والتحاور. وتعد هذه الحملة من أنجح الحملات التي لا تزال فعالة حتى يومنا هذا والتي حتماً قد تكون واجهتها قبل أن تقرأ عنها هنا.

أما (خنظفها) فهي حملة واسعة للتنظيف شملت كل محافظات العراق. كان الهدف منها منع المواطنين من رمي مخلفاتهم في الأماكن العامة وحثهم على تنظيف الشوارع والمناطق التي بقربهم. ولاقت هذه الحملة نجاحاً باهراً وانتشرت مشاهد عديدة للمواطنين وهم يشاركون بها ليظهروا الجمال الحقيقي لشوارع العراق الحبيب.

وتزامناً مع ارتفاع درجات الحرارة العالية وتلوث الهواء في عموم العراق ساهمنا بحملة جديدة لزراعة الأشجار والنباتات في الشوارع والحدائق للمساهمة بخفض الحرارة وبث الأوكسجين النقي. شارك في هذه الحملة أكثر من مئتي ألف متطوع وأثمرت الحملة وقطفنا ثمار النتائج المميزة .

وفي ظل انتشار الإعلانات المضللة والتي لا تخضع للرقابة في العراق، أطلقتُ حملة (أخذها أنت). كان الهدف منها منع وتجريم الترويج لكل المواد المنحفة والمشهية وبيعها. هذه المواد الضارة انتشرت في العقد الأخير من الزمن بكثرة وأصبحت تؤخذ بدون وصفة مختصين وبلا شهادات طبية مما أودت بحياة المئات من المستهلكين دون معرفة ذويهم السبب الحقيقي وراء وفاتهم. سُلط الضوء على مخاطر هذه المواد ونُشرت تقارير طبية عن عدم شرعيتها،

وأغلب ما يروج له التجار هو في الواقع مُهرب من منافذ حدودية لا يسمح لهم باستيراده.
هذه الحملة الإنسانية حفظت آلاف الأرواح من الناس وحثتهم على اللجوء إلى الرياضة الصحية والاعتماد على أنظمتها المتعددة من أجل الحصول على الوزن المثالي دون أن تُعرض حياتهم إلى الخطر المميت.

ولأن الهدف من إنشاء الصفحة كان نشر الوعي والتنوير، فقد انطلقت حملة أخرى تنبذ الشعوذة والسحر، سُميت بـ(كافي دجل). اختصت هذه الحملة بمحاربة السحرة والمشعوذين على منصات التواصل ومنعهم من الاحتيال على الناس وطلب مبالغ مادية كبيرة منهم من أجل القضاء على أزماتهم النفسية والاجتماعية ونيلهم مرادهم كما يدّعون.

(مبارك صرت رجال) إحدى الحملات التي تحارب إطلاق النار العشوائي في الأحياء السكنية والتي غالباً ما تحدث بسبب المناسبات الاجتماعية مثل الأعراس أو الاحتفالات الناتجة عن فوز المنتخب الوطني وغيرها من الأسباب العديدة.

لا تزال هناك العديد من الحملات التي لا يسعني ذكرها كلها، لكنها حتماً تعالج مشكلة كبيرة تغوص داخل المجتمع كالمشاكل المذكورة أعلاه. وبهذا يكون (أبو الأصفر) ليس ناقداً للمشاهير فحسب، بل مقوماً لمجتمع بأكمله بكافة قضاياه وقصوره ومختلف الأزمات التي يعاني منها.

اليوم وبعد مرور أربع سنوات على انطلاق المشوار، يكتب لكم (أبو الأصفر) قصته بكامل خفاياها وأسرارها والتجارب العظيمة التي شهدها في هذا المشوار المثير وقد كنتم جزءاً كبيراً من هذه القصة، أو إن صح القول الجزء الأكبر بالتأثير حتماً.

الفصـــل الأول

ما قبل الولادة

الشرارة

كان صباح الخميس، حيث صادف موعد إحدى الاختبارات الفاصلة في مسيرتي التعليمية. كنت جالساً في رواق الجامعة انتظر دوري للدخول في محاورة شفوية مع عالم الآثار وأحد خبراء التأريخ السياسي القديم.

لم يلبث طويلاً حتى سمعت صوتاً ينادي باسمي. فقد كنت من الطلبة الذين يفضلون الدخول أولاً، للتخلص من توتر الفحص قبيل بدئه. الفرحة عارمة عند سماع اسمي بعد انتظار قد يكون طويلاً نسبيا.

على مدار نصف عام، كان قد ألقى علي الكثير من المحاضرات الاكاديمية، لكنها المرة الأولى التي اضطررنا فيها للحديث ووجها لوجه وعلى طاولة واحدة. كان ذلك لغرض التعارف قبيل بدء الفحص، ولكي يكون الحوار إبداعيا، يتناسب مع الحدث والنطاق الذي أجلسنا على هذه طاولة، طلب مني التعريف عن ذاتي بصورة تاريخية سياسية .

هل صادف أحدكم سؤالاً فضولياً كهذا:

- عرّف عن نفسك بطريقة تاريخية سياسية؟

كان سؤالاً غريبا ومخالفاً للمألوف. فأجبته :

- ماذا تقصد؟
- أعني أن تحدثني قليلاً عن مدينتك التي تسكن فيها، سبب تسمية الشارع الذي تقطن فيه، وفي أي ظروف تم

تشييد البناء القديم الذي يعد أحد المعالم السياحية لمدينتك؟

حسناً، لقد كان دخولاً مراوغاً، لم أكن أود الغوص في تعريف غير مجدٍ في اليوم الأخير من السنة الدراسية.

فما قيمة التعارف في اللحظة الضائعة على من لن تراه مجددًا بعد هذا اللقاء؟

أصبحت كالمشجع الذي فرِح بتسجيل هدف مُنتظر وحاسم دخل الشباك بعد صافرة النهاية. فأجبت:

- دعني أخمن، لديك ما يقارب (350) طالباً وقد يكون أغلبهم من هذه المدينة، مما يعني حصولك على عشرات الإجابات المكررة عن نفس الشوارع والمعالم الأثرية.
- ما رأيك أن أوفر عليك عناء الاستماع إلى الأحاديث المكررة المملة؟

أجاب: - كيف ذلك؟

- فلنبتعد عن المدينة قليلاً واسمح لي أن أحدثك عن الأصل، النشأة، العرق، بسرد تاريخي سياسي كما أمرت.

أنا يا أستاذي من مكان بعيد جداً، تاريخي جداً ومفعم بالمتغيرات السياسية على مر العصور.

أنا من بلاد كانت تسمى يوماً بلاد ما بين النهرين، حيث أشهر حضارات العالم سومر وبابل وآشور.

إنها البقعة التي انطلقت منها البشرية، بعلمها وقانونها وفنونها، بحروفها وأرقامها، أنا من بابل التي بدأ منها العد العشري الستيني، وهو المصدر الحالي للساعة المكونة من ستين دقيقة التي ترتديها اليوم في معصمك الأيسر .

أنا من الأرض التي كانت يوماً تربةً للعلم والعلماء، تولدهم وتغذيهم ومن ثم تحررهم لنشر العلم والمعرفة في كل بقاع الأرض.

قاطعني: أتقصد أنك من العراق؟

أجبت: أفضل أن أقول إني من بلاد ما بين النهرين، ألم تطلب مني قبل قليل أن أحدثك بسرد تاريخي قديم؟

- أليست النتيجة واحدة؟
- قطعا يا سيدي، فأنا عندما أذكر بلاد ما بين النهرين سوف يطرأ على بالك العلم والثقافة والمعرفة وسيل من الحضارات .

أما عراق اليوم فقد تجرد من هذه الصورة وأصبح عنواناً للحروب والنزاعات، وأصبح مصدراً دسماً لأخبار المآسي على القنوات.

أجابني واثقاً: - لا يزال هناك من العلماء والمفكرين ما يجعلك فخوراً ومتباهياً بعراقك الحديث ذاك.

حُفرت هذه العبارة في ذاكرتي أياماً وشهوراً، وكأنني أبحث بين طياتها عن لغز خفي لم أستطع حله في تلك الليالي الطويلة .

كان في جوابه حقيقة منقوصة لا يتقبلها منطقي. كان فيها خللاً لم أستطع تشخيصه ولا أدري ما هو.

كنت أبحث عن سبب عدم تصديقي لما يقول. لماذا تتكون لدي صورة سيئة عن بلادي في الوقت الذي يأتيني فيه غريب ويقول عنه ما لا أستطيع أن أقول؟

لماذا يراه عراقاً زاهياً فخراً للعلم والمعرفة بينما أرى أنا النقيض تماماً؟

حتى استلقيت يوماً في إحدى مساحات الطبيعة الخضراء الخلابة أسمع بجانبي أصوات نوافير المياه الهائجة ومن فوقي تغريد الطيور المهاجرة .

وبينما التقطت هاتفي لأتصفح أخبار البلاد وما يدور هناك، ظهرت أمامي مشاهد توثق المستويات اللاأخلاقية التي تسود أغلب المنصات الاجتماعية.
الشخصيات المعروفة التي تمثل البلد لم تكن سوى قمامات قذفتها علينا سوء تربية أولياء أمورهم وتفككهم الأسري فأصبحوا بلا حسيب أو رقيب يمثلوننا دون إذن منا.
هنا تذكرت العبارة التي خلدت في ذاكرتي لأشهر طويلة وفي لحظة، حُل اللغز .
لقد اتضح أن العراق الذي في مخيلتي هو ذاته الذي في مخيلة أستاذي الأجنبي، لكل منا منظوره المختلف.
فهو يستمد صورة العراق من الكتب والدراسات التي يعيش معها، أما أنا فنظرتي مستنبطة مع الإعلام ومهرجيه وسذاجة محتواهم، كما هو الحال مع أقران جيلي.
هو يقرأ العراق في كتبه، وأنا أشاهده على شاشة هاتفي.
أليس هذا الموقف مُلهماً كفاية لمحاولة التغيير من واقع الإعلام والشخصيات التي تكون في واجهته؟
أليس من البديهي أن نُقرّب المسافات بين الكتاب والشاشة؟
لنتفق أنا ومُعلمي الأجنبي على حل وسط يرضينا؟

كان كذلك بالنسبة لي فمن هنا انطلقت فكرة القضاء على التفاهات ومحاربة من أفسد قيم المجتمع وساهم بفكرة أن العراق بلد التفاهة والتافهين بدل العلماء والمثقفين .
من هنا انطلق (أبو الأصفر).

هل توبخ نفسك قبل الآخرين؟

لكل منا ستار يختبئ خلفه بذنوبه وخطاياه ومختلف الآثام التي جناها. ونكاد لا نخطو خطوة واحدة إلى العلن حتى نكون قد أزلنا كل تلك الخدوش الظاهرة. فمن منا يجرؤ على مواجهة الملأ بروح نقية متجردة من كل الضوابط المزيفة التي فرضها علينا المجتمع؟

إنها مهمة تكاد أن تكون مستحيلة. لكن لا تخف، فكلنا نخشى فعل ذلك. الإنسان بفطرته يسعى إلى الكمال، التفاخر بالمثالية والتباهي بما يميزه عن الآخرين.

إن كنت تعتقد أنك مختلف في ذلك، تُجاهر بالخطايا قبل الجهر بمزاياك الحميدة، وتفخر بها لأنها ساهمت ببلورة شخصيتك، هنا دعني أذكرك بجوابك عن سؤال (حدثنا عن نفسك) في مقابلات العمل التي تقدم عليها.

ألست أنت ممن يسرعون باحثين عن أسمى عبارات التبجيل والإطراء وامتداح الذات دون أن تذكر أي عيب من عيوبك الوافرة .

ألست أنت الحبيب الذي عددت مؤهلاتك الشخصية على الشريك المستقبلي وامتدحت صفاتك الجذابة ومقتنياتك الثمينة وذكاءك الذي يعزز خياراتك المصيرية ونسيت أن تجاهر بأبسط الصفات المكروهة التي سيتجرع بها شريكك كأس السم بعد يومين من الارتباط؟

دعني أريحك، لست الوحيد الذي يرسم لذاته صورة مثالية مكتملة ويرفض مواجهة ذنوبه حتى تطيح به يوماً دون رأفة.

فبعد مدة من الزمن سيعلم رئيسك في العمل عن عادتك السيئة بالقدوم متأخراً في كل مرة وعدت بها بالوصول باكراً.

وسيدرك شريك حياتك كيف للإنسان أن يكون متذمراً شاكياً بقدرك .

سيقذفون في وجهك حزمة من الأوراق التي يسرد فيها كل منهما ما لا يعد ولا يحصى من الصفات السيئة التي لم تذكرها أنت عند اللقاء الأول.

أتعلم ما هو الغريب في الأمر؟ إنك ستتفاجأ بما يقولون. وكأنك لم تعرف نفسك خلال الثلاثين عاماً الماضية.

فتبدأ بطقوسك الخاصة في النوح والبكاء مُعتقداً أنك مظلوم ضعيف انتصر عليه الطغاة والمستبدون.

هذا لأننا لم ننشأ على ثقافة النقد الذاتي، فلم نسمعها من آبائنا ولم ندرسها في كتب التربية والتعليم. لأن كل منا يؤمن بقدسية ذاته. أنا طيب، أنا جيد، أنا صادق، أنا شجاع، وكثير من الأنا.

تخيل كيف سيكون أداؤك عندما تعود إلى تجاربك السلبية التي مررت بها في مراحل مراهقتك المبكرة مع الآباء والأمهات والأصدقاء .

خمن إلى أي مستوى سينمو نُضجك عندما تدون كل تلك التجارب على أوراقك المبعثرة؟

أن تصف تلك اللحظات الصعبة بأدق تفاصيلها، أن تحترم آلامك وتعيها. تعيشها وكأنها حدثت لتوها. وبعد انتهاء فصل النحيب تأخذ قلمك مجدداً وتنتقد ردة فعلك اللعينة تلك. ما كان يجب عليّ أن استعين بذلك السلوك، أن أتلفظ بتلك العبارات، لو حدثت مجدداً لفعلت كذا وكذا.

اذكر عندما كنت في السابعة من عمري. ذهبت إلى المدرسة بهندام جديد اشترته لي أمي بإحدى المناسبات السعيدة. كان الشعب حينها يعاني من ويلات الحصار القاسية. فقد كان هذا الضيق يهدد حياة السكان المدنيين عن طريق حرمانهم من السلع الضرورية من أجل البقاء على قيد الحياة. تخيل أن ارتداء الجوراب القطني كان يعد من معالم الرفاهية على طلبة تلك المدرسة البائسة. وبينما كانت الحياة كذلك، ذهبت متباهياً بما لدي من ثياب جديدة. وددت أن يصادفني الجميع في ذلك اليوم .

وسرعان ما همس زميل لي في الصف: انظر لفلان كم هو عبوس وهو ينظر إلى ثيابك. لا أخفيكم لقد شعرت بالفخر حينها. فقد كانت أناقتي في ذلك اليوم لأجل أن أحظى بهكذا إطراء. فبقيت أعاود الذهاب والإياب أمام أعين ذلك الطفل المحروم حتى يتمكن في كل مرة من رؤية ما يميزني عنه.

بعد أعوام طويلة، أدركت معنى الحصار الذي عصف ببلدي. وقيمة الرداء الأنيق الذي ارتديته في تلك الظروف القاهرة. والأهم شعرت بحرمان ذلك الطفل الشقي الذي ربما كان ينظر لي بتمعن لأنه لم يحظَ بمشاهدة شيئاً جميلاً نظيفاً في تلك البلدة القذرة .

كانت من المشاهد التي لن أنساها ما حييت. كم تمنيت أن يعود بي الزمن لأخلع معطفي وأشاركه مع زميلي اليتيم ذاك.

هل لكم أن تتخيلوا بهجته بشيء كهذا؟ أووووه ليتني فعلت.

هذه التجربة التي مررت بها بسنواتي الأولى، لم تكن إلا درع حماية اتخذته لنفسي ليصد عني التكبر والغرور في أعوامي القادمة. فمنذ ذلك الحين وأنا

أفكر ألف مرة ومرة قبل اختيار ثيابي عند الخروج مع مجموعة من الأصدقاء أصحاب الدخل المحدود.

تخيل لو أتيحت لنا الفرصة جميعاً بمراجعة أنفسنا بعصبيتنا وطيشنا وبأدائنا الرعوني. لو كتبنا الأخطاء والحسنات جنباً إلى جنب. لو قلنا: يا إلهي كيف لي أن أكون بهذا القدر من الغباء والتمرد.

فأنت ستمنح نفسك تقديرًا لا مثيل له. الدقائق التي تخصصها بنقد ذاتك ما هي إلا تكريم للحظات عجزك.

أن يُعيد الفرد تقييم نفسه هو أسمى درجات بناء الذات .

وإن فعلت، تأكد أنك من القلة الذين يقوون على تحديد أخطائهم وعيوبهم ومن ثم محاولة تصحيحها وهذا هو إحدى الطرق المؤدية إلى النجاح .

فما قيمة عيوبنا إذ لم نفعلها، نراجعها، ننتقدها ونجعل منها درساً لا يُنسى.

أوليس الإنسان بطبعه خطاء؟

فما قيمة العيب إذ لم نقر به؟

ما كان هذا إلا تمهيداً بأحقية المرء بانتقاد ذاته لغرض الإصلاح وليس اللوم أو التوبيخ. وكما قال غاندي: إن كنت تريد تغيير العالم فعليك البدء من نفسك. هكذا هو النقد، أن تبدأ بنفسك قبل الآخرين. ألم يقل ديننا السمح إن الأقرباء أولى بالمعروف؟ فهل هناك من هو أقرب منك إلى نفسك؟

لكن هذا المجتمع يحارب النصوص النقدية، يحارب الأفكار الناقدة، إنه يريد التخلص من الخبراء والمبصرين الذين يروجون للنقد والانتقاد بشتى الأثمان؛ لأنهم يهربون من التطور والإصلاح، يخشون انتعاش الحضارات

وتحضر المجتمعات، يحللون ويشرعون لكل ما يُغرق الثقافات .

عندما بدأت مسيرتي مع الانتقاد شرعت بنقد ذاتي، ونقد تجاربي الخاطئة التي ولدت معي، وما زلت أفعل ذلك كل يوم لأنه أصبح من عاداتي التي لا أتنازل عنها .

قررت أن أضع في حقيبتي كل أدوات الصبر والحكمة وشتى التضحيات من أجل تثبيت الثقافة النقدية وجعلها فريضة سائدة في المجتمع .

فهل سأنجح في ظل هذا الرفض الشديد لهذه الأفكار؟

نقد المجتمع من منظور شخصي

عندما أخذت على عاتقي مسؤولية نقد الظواهر السلبية في المجتمع، حرصت على أن يكون نقداً حيادياً بعيداً كل البعد عن السائد من نقد شخصي متعدد المصالح والغايات .

فنحن نعاني من مفاهيم مجحفة بحق الناقد في منطقتنا الشرقية بسبب هذه الفئة المغرضة.

الناقد بمنظور المجتمع هو أحد العاطلين الذين يفنون حياتهم في مراقبة الآخرين وانتقاد أفعالهم.

هو ذلك الذي يتلقى توبيخاً من والديه وإخوانه ومن المقربين فيجد لنفسه مخرجاً بالتسلط على عيوب غيره ليكونوا محط سخرية يشاركونه القدر ذاته.

عانت المنطقة العربية من تسلط حكامها وأنظمتهم الدكتاتورية على مر العصور. فعلى سبيل المثال عدَّ حزب البعث العراقي بقيادة صدام حسين أن كل مواطن يعارض السلطة في الرأي والمبدأ يُصنف مشاغباً عاصياً للحكم والقانون. فقد سُلب من المواطنين حق إبداء الرأي في كل الشؤون السياسية والقيادية وغيرها من المجالات التي تتعارض مع الحكم. وهذا ما جعل ملايين الألسنة تنطق بالشعارات نفسها على مدى 35 عاماً كالببغاوات التي تردد ما يداعب مسامعها دون الوقوف عنده.

النظام القمعي الذي بدأ بملء السجون بالمواطنين الذين يُعتقلون كل يوم لا لشيء سوى للتعبير عن آرائهم، ولّد لدى تلك الأجيال ثقافة التملق للفساد والتفكير العبودي. حرية الرأي التي عانت من تعسفات وانتهاكات كثيرة بسبب هذه الأنظمة، تُرجمت اليوم بمفاهيم معكوسة لا تمت للرأي الحر بأي صلة. فقد أصبح الناقد شخصاً شاذاً في تركيبة المجتمع يحاول جذب الاهتمام الذي يفتقده من خلال السير عكس الاتجاه، لأن الاتجاه الواحد الذي يعرفونه هو ما عاشوا وتربوا عليه ومن يخالفه يجب أن يُصلب ويُرجم بالحجارة كما كانوا يفعلون في زمن الجاهلية.

ولهذا فنحن لم ننشأ على ثقافة تعظيم إمكانيات الناقد والإشادة حياديته في تناول مواد النقد بكافة أشكالها وأنواعها. فالناقد دون غيره يتميز بما يصعب علينا جميعاً فعله الا وهو عدم الخضوع للأهواء الشخصية التي تسيطر عادةً على الأحكام النقدية.

هل لك أن تتخيل مدى صعوبة إصدار الأحكام الإيجابية منها والسلبية بعيداً عن شعورك وعلاقتك وأفكارك تجاه الشخص المنتقد؟

هذا يعد واحداً من أصعب أنواع النقد. فقد تعرفنا في المدارس على أنواع متنوعة من النقد ومنها النقد الأدبي.

وهذا برأيي رغم ضوابطه المعقدة كان أسهل الواجبات التي تلقيتها في حياتي. فحين تنتقد نصاً أدبياً يتوجب عليك معايشة الأجواء التي مر بها الكاتب أثناء خطه لهذا النص وتبدأ بتحليل كل صغيرة وكبيرة معتمداً على الحقبة

الزمنية التي عاش بها صاحب الخطاب والضوابط الاجتماعية والأوضاع السياسة والاقتصادية في البلد آنذاك .

قد يسأل سائل منكم ولماذا يكون هذا النوع هو الأسهل في حين يحتاج الناقد فيه إلى مخيلة واسعة تقيس وتوزن كل هذه العوامل على حدة. فهي عملية تحتاج إلى حضور ذهني ونسيج فكري عاليين في المستوى يصعب على الكثيرين بلوغه.

حسناً، أرجو أن تمنحوني لحظات خالصة خالية من الأحكام المسبقة حتى نتمكن سويةً من رؤية الموضوع من الزاوية ذاتها.

النقد الاجتماعي الذي يصدر حول حقبة زمنية جارية هو الأصعب من بين الأنواع المختلفة الأخرى. فهو يتطلب منك تفهم عالِ لفعل شاذ في وقت ومكان أنت متواجد فيهما. هذا يعني أنك لن تحتاج إلى تلك المخيلة الواسعة بقراءة الظروف والأحداث التي غابت عنك، ولكنك في الوقت ذاته مُطالب بنقد حيادي خالٍ من الشخصنة على الرغم من وجودك في زمان ومكان الحدث المنتقد الذي ستؤثر عواقبه الحتمية عليك.

عند احتلال العراق عام 2003 كانت أغلب الحكومات العالمية والشعوب العربية مؤيدة لنظرية امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل. شخصيات سياسية على مستوى عالمي رفيع جزمت بهذه الفرضية وتبنت أفكاراً متطرفة أدت إلى اشتراكهم بذلك الغزو الباطل.

كان من النادر أن تسمع أفكاراً مغايرة في تلك الحقبة، فكل قنوات التلفزة أكدت وجود الأسلحة المزعومة نقلاً عن أبرز المصادر. الرأي السائد للنقاد

آنذاك كان يؤيد خوض الحرب لإقرار السلم والتخلص من أسلحة الموت المحتم .

بعيداً عن كون قوات التحالف لم تجد حتى يومنا هذا أثراً لتلك الأسلحة، ولكن معرفة أن تحليل الأحداث من قبل المختصين لم يكن سليماً بسبب قربهم من الحدث وعواقبه، هو أمر مثير للاهتمام حقاً.

فبعد مرور ما يقارب العشرين عاماً، أي عندما أصبح الحدث في طي الماضي، وجدنا بعض التصريحات والانتقادات الجادة القريبة من الواقع . فقد اتفقوا الأغلبية على أن وجود الأسلحة إن كان حقيقياً، لم يكن سبباً جاداً لهذا الاحتلال الذي تترتب عليه عواقب وخيمة وأخطاء كارثية تطيح بشعب كامل وربما يخل بتوازن منطقة الشرق الأوسط بأكملها.

هذا النموذج يؤكد قناعتي بأن انتقاد حدث يجري في الزمان والمكان الذي تعيش فيهما، هو أصعب بكثير مما لو كان في طيات الماضي. فالأول يعيق حيادتك ويجعل آراءك متأثرة بمحيطك وظروفك. والثاني يحدث بعد صدور كل النتائج التي لن تقوى على تغييرها.
النقد اللحظي قابل للشك واليقين ويحتمل القسمة على عدة خيارات. أما الآخر فتقل فيه نسبة الخطأ لأنك ستقف متفرجاً من بعيد على أحداث جرت ومضت.

هذه هي أسبابي التي تجعل النقد الاجتماعي الذي يستخدم للزمن المعاصر من أصعب أنواع النقد. فهو متغير لا يعرف الثبات قد يصيب فيه الهاوي ويخيب به المخضرم .

ومن أجل تقليل نسبة الخطأ وتفادي الوقوع بمطبات أثناء الانتقاد. هناك بعض العوامل المهمة التي آخذها بعين الاعتبار ولا أتهاون معها مهما كانت المغريات.

وقد يكون أبرزها الابتعاد عن انتقاد الحياة الشخصية غير المعلنة للمنتقد.

وهذه تعد من المتسببات الرئيسية التي تحول دون ارتقاء الناقد العربي إلى المستوى المهني المطلوب.

فالإعلام العربي بصوة عامة يقتنص نقاط ضعف المشاهد أو المهتم بالعموم. وقد تكون أبرزها الفضول حيال الحياة الشخصية لبعض الشخصيات البارزة التي لا أمانع من التطرق لها بقدر الحد الذي يحدده أصحابها، فقط لا غير.

فعلى سبيل المثال تلقيت ذات يوم رسالة موثقة أحداثها بالصور والمشاهد التي لا تقبل الشك من قبل أحد الأشخاص الذين كانوا في إحدى النوادي الليلة. حدثني هذا الشاب عن ليلة مثيرة جرت على غير العادة في ذلك النادي المرموق. فقد تواجدت إحدى مشاهير الصف الأول قبل ليلة لانتشال ابنتها البالغة من العمر ستة عشر عاماً من بين أحضان شابين بالغين كانا يتقاسمانها. طفلة قاصر كانت ستقع ضحية لفضيحة كبيرة بمجتمع محافظ كابنة لاسم معروف لولا مبادئ الناقد. هذا الفعل لم يُنتقد حرمة لخصوصية أصحابه الذين لم يشاركونه للعامة. والغريب

بالأمر أن هذه الشخصية قمت بنقدها في الصباح التالي بسبب إحدى الصور التي التقطتها لنعليها على مقربة من عدسة الكاميرا. فانقسمت الآراء بين مؤيد ومعارض. كنت أراه فعلا قبيحاً يقلل من احترام المشاهد الذي يتصفح اليوميات باهتمام عالٍ ليجد نعالاً قبالته. بينما عده بعضهم فعلاً تافهاً لا يستحق الالتفات.

العبرة من طرح هذين النقيضين هو أن على الناقد احترام الحالة الخصوصية التي يتمتع بها المشهور وألا يخترق الأجواء الخاصة التي يبقى خارجها.

فالحدث الأول المذكور وعلى الرغم من أهميته والعِبر التي يمكن أن تُستخرج منه لإفادة المتابع، إلا أنه لا يصلح أن يكون درساً على حساب خصوصية الآخرين التي ربما تطيح بهم.

هذا التصرف قد يبدو لك من الوهلة الأولى أنه مرتكز على المبادئ الشخصية للناقد، وأنت مصيب في ذلك.

لكن تذكر أن القانون أيضا يجرم التعدي على خصوصيات الآخرين غير المعلنة. وهذا أحد الجوانب الذي نعمل عليه لتعزيز روح القانون داخل المجتمع.

الفصل الثاني

التطعيم الأول

لست وحدك يا صديقي

في حياتي كانت لدي حظوة التعرف على كل أنواع الناس بشتى تنوعاتهم، بكل هوسهم وجنونهم، منهم اللعوب، والمتزهد، والمكتئب، والثرثار، المتودد، والمتعال، الدامع، والضاحك، النافر، والمحشور بين أكتاف الآخرين. ورغم تعدد الاختلافات بينهم إلا أن هناك حالة ثابتة تقاسموها جميعاً حتى أنا بتُ أشاركهم فيها، وأنت أيضاً إيها القارئ لديك من النصيب فيها حتماً.

لست معتاداً على الأساليب الجازمة ودائماً ما أترك حصة للاستثناءات والتناقضات الممكنة، لكن بربك قل لي هل يوجد بيننا ممن وصل إلى منتصف العمر ولم يكتشف أثار سوء التربية وسلوكياتها على روحه وأهدافه ونمط حياته؟ ألم يربونا أولياءنا على مبدأ الطاعة من الإيمان والعصي من الشيطان؟

هل سلم أحدكم من التوبيخ اليومي لأبسط الأفعال والتي فيما بعد أصبحت من الروتين التقليدي الذي لا يُستغنى عنه داخل العائلة؟

ألم يكن أكبر المتنمرين في حياتك هم من داخل منزلك الذي تحبه كثيراً وتشعر فيه بالأمان والاطمئنان؟

أراك الآن محتاراً متردداً تفكر كثيراً قبل أن تهز رأسك وتوافقني القول .

سأوفر عليك عناء ذلك، فحتى وإن وصلنا إلى منتصف العمر لا زلنا لا نقوى على الإقرار بخطايا اقترفوها بحقنا أهالينا ولا يزال التحدث عنها من المحرمات.

خلال أيام الدراسة في البلاد البعيدة ومن بين البرامج المكثفة التي كنت أتلقاها، كانت هناك مادة سُميت (بالانعكاس) أراها كالجوكر، ففيها لا يمكنك أن تكون مخطئاً ولا مصيباً. الفكرة منها هي أن تكتب ما يجول في خاطرك. أن تدوّن تجاربك الدراسية وأن تخرج كل الغضب على تلك الورقة البريئة التي لا دخل لها بما عايشت. تستطيع أن تنتقد نفسك، أن توبخ أستاذك أو أن تلعن المؤسسة التدريسية التي تنتمي إليها. والغريب بالأمر أنك ستسلمها فيما بعد للمتسبب بكل هذا. سيقرأها ويمضي. لن تتعرض إلى عقوبة مهما كان محتواها.

لكنك بعد ذلك ستشعر أن ما كتبته جلب لك نتيجة مُرضية؛ لأن انتفاضك على نفسك وترجمة ما يجول بخاطرك ومواجهتك للأشخاص المعنيين بورقة وقلم، هو أمر له نتائج مبهرة لن تستحصلها بأسلحة أخرى مهما كانت قوتها أو فاعليتها.

كان الهدف من هذه الفكرة هو أن ينتقد الطالب أستاذه، أو كليته، أو أن ينتقد المنهج التدريسي بأكمله. وبعد أن يصل الانتقاد إلى أصحابه، يمكنك أن تنتظر تصحيحاً لبعض الأفعال الخاطئة التي دونتها في رسالتك وعانيت منها.

كم تمنيت أن تكون هذه المادة حاضرة في بيوتنا، أن أسلم أبي كل أسبوع تقريراً بكل الخطايا التي اقترفها بحقي دون أن يمسني أي عقاب منه، أن أصارح أمي باهتمامها الفائض بأبنائها الذكور على حساب بناتها الإناث، أن أحاسبهم على الثقة التي لم يمنحوها لي في قمة احتياجي لها .

أفكر ملياً هل ستكون مادة (الترميم) هذه متوفرة في منازلنا العربية ذات يوم دون عواقب تترتب عليها؟أم أن أسلحة الجلد والصلب ستكون حاضرة قبلها؟

إذا لاحظت عزيزي القارئ، أنا تطرقت أعلاه لصفة واحدة نشترك بها جميعاً ألا وهي معاناتنا مع سوء التربية التي حصدنا ثمارها الفاسدة بعد سنوات طويلة. لكنني لم أتطرق إلى التعنيف الجسدي الذي تمتاز فيه الشعوب العربية داخل منازلها، وذلك لأنني أخشى الجزم في موضوع خطير كهذا. لأن المحظوظ فينا عانى من التنمر والتوبيخ وعاش مع والديه حياة العبد الذي يسعى لإرضاء سيده حتى لا يقذف به خارجاً ليبقى دون مأكل ومشرب. دون مأوى يحتويه وينتمي إليه.

أما إذا كنت أنت ممن أخذوا حصتهم من العنف الجسدي قبل اللفظي، فأنا آسف على ذلك حقاً. نيابة عمن تسبب لك بذلك.
لأنني أخشى أن أعبر عن حالة لم أجربها من قبل، أن أنقل بدقة إحساس طفل عانى من الضرب المبرح طيلة طفولته من قبل إحدى الشخصيات التي يراها قدوة له. هل لك أن تتخيل خيبة أمله حينها؟

كنتُ مراهقاً في الرابعة عشر من عمري، أمشي في الشوارع الغريبة عائداً من المدرسة، منتشياً إثر لحظة شتائية مشمسة. طرقت باب البيت، فوجدته مواربا، ولمحت ظل أمي تقف متخفية خلفه، وبوجه شاحب ومفزوع غمزت

لي ثم تمتمت بكلمات غير مفهومة، لم أفهم هذه الإيماءة الغريبة، وما إن توغلت داخل المنزل حتى سمعت صرخة مدوية، كانَ أبي يقف أمامي وكاد أن ينفجر من الغضب، شاح نظري نحو عرق ناتئ يبرز من جبينه، وقبل أن أتمكن من استيعاب ما يحدث، لطمني على وجهي، كانت صفعة كفيلة بتحويلي إلى ضفدع يرتجف من البرد حسب (الأخوين غريم)، ليسَ صحيحاً أن قبلة واحدة من أميرة بإمكانها أن تحول الضفدع إلى أمير جرب صفعة واحدة من أبي إن كنتَ تريد تجربة العيش في جسد ضفدع. يا إلهي كم من أميرة أحتاج في حياتي لكي أنسى عالم الضفادع هذا !

عرفت بعد حين أن والدي كان قد تلقى رسالة من أحد المجهولين المضغوطين كانت تلك الرسالة مليئة بالحيل والأكاذيب والخيال الروائي، وكانت الغاية منها هو العصف بالعلاقة الوطيدة التي كانت تربطني بأبي.

كم أعجبت بذلك المدلس الكذاب، لو كتبَ رواية حينها بدلاً عن هذه الرسالة التي لم تحقق له أي مجد، لكنا حظينا بدان براون عراقي !

وصل دان براون العراقي إلى غايته ونجح في زعزعة العلاقة بيني وبين والدي.

ومنذ ذلك اليوم الشتائي الحزين وأنا لست على يرام. لم أتمكن من قول: إن كل ما ورد في ذلك المكتوب هو عبارة عن ادعاءات باطلة وأكاذيب مبتذلة، ما كان على أبي تصديقها .

لماذا لم أفصح حينها عن كل ما يعتمل به قلب هذا الضفدع البائس؟ هل لأنني أخاف بل وأرتجف من الخوف عندما أفكر في ردة فعله وأتجنبها؟

في الواقع لا، كل ما في الأمر هو أنني لن أعود مجدداً إلى عمر الأربعة عشر عاماً مهما كانت الاحتمالات!

لا يمكنني بعد الآن نزع ذلك الخوف الذي سيطر عليّ مثل من ينتزع الشوك من جلده، ولا يمكنني محو الرعب الذي كانَ يسكن في وجه أمي. ولا يمكنني أيضاً نسيان السيناريوهات المئة التي خطرت على بالي حينها.
كيف يمكن لعتاب أو مصارحة أن يعيد أمنيات وأحلام كُسرت وتشظت في عباب الزمن؟ !كيف يمكن أن تُزرع وردة في زمن ولى ومضى لم يعد من المعقول أن تزهر في المستقبل؟
تجربتي الوحيدة هذه التي أذكرها عن التعنيف الجسدي قتلت في داخلي مشاعر جمة لن يصلحها أي ترقيع بعد الآن.

ستنظر إلى الجانب المشرق وتقول إن التعرض لخيبة أمل من المقربين وتخطيها، هي تزكية، وخيبات الأمل القادمة ستكون أقل وطأة من سابقتها. أن يدهسك قدوتك في الحياة هو أقوى لقاح ضد الغدر والخيانة الذي ستتعرض له في كل مراحل حياتك القادمة.
هذا لا يعني أنني لم أحظَ بأب جيد. على العكس تماماً فقد كان لي أكثر من أب في جسد واحد. أحدهما سيئ والآخر مضاد له. تعلمت من دروسهما الكثير ولا زلت.
أفكر أحياناً كيف يمكن أن تجرب الخذلان والتضحية من شخص واحد وهما شعوران متضادان إلى حد كبير؟

في أيام الحصار القاسية وعندما كان الشعب يتضور جوعاً يعمل بقسوة مقابل رغيف خبز نظيف، جاء والدي إلى المنزل بجسد مرهق وهو يحمل

أربع حبات من الموز معه. كانت واحدة من أجل والدتي وثلاث حبات لنا نحن الإخوة. أما حصته فقد كان قد التهمها قبل مجيئه لأنه لم يقوَ على الانتظار .
إذا كنت من جيل التسعينات وما سبقه ستعرف جيداً ثمن حبة الموز في ذلك الزمن. إنه يكاد أن يكون راتب ثلاثون يوماً لمعلم مواظب على عمله.
فهل من المنطق إنفاق كل هذا المال على ما تأكله بثوانٍ معدودة؟
بعد مرور سنوات عديدة علمنا أن موزة أبي التي يدعي في كل مرة أنه أكلها في طريقه إلينا، لم يأكلها قط.
فقد كان جيبه لا يقوى على إنفاق موزة خامسة يتلذذ بها مثلنا. كان ماهراً بتأليف هذه الخدعة التي انطلت علينا ونصدقها في كل مرة.
أمامك نموذجين واحد منهما يجسد الخذلان الذي قد يتعرض له الابن من قبل والديه.
والآخر هو التعريف الحقيقي لروح التضحية التي يتمتع بها أغلب الآباء مهما كانت مفاهيمهم عن التربية خاطئة .
ولهذا لا أقوى على لوم والدي على القصور الذي خلفوه بتنميتي، فقد كانوا يوماً ضحايا مثلي لسلوكيات تربوية خاطئة متوارثة عن أجيال عديدة. فما يجعل شعور الحب سارياً بين الأبناء والآباء على الرغم من أخطائهم التي قد تحطم حياة بأكملها، هو يقيننا بأنهم لا يدركون ما يفعلون، أو إن صح القول، هم يفعلون ما يعتقدون أنه الأصح.

لماذا أنا مجهول؟

في مدينة ايفانوفاكا والتي تقع بالقرب من العاصمة الروسية موسكو كان يعيش الثنائي ستاس وزوجته فالنتينا.
كان ستاس البالغ من العمر ثلاثين عاماً، شاباً مجنوناً يبحث عن الشهرة وجذب الأنظار عن طريق منصات التواصل الاجتماعي المختلفة. كان ينوي جني المال من خلال افتتاح قناة في موقع اليوتيوب يشرح بها عن هوسه منذ الصغر بدهاليز وأسرار الألعاب الإلكترونية. حيث إنه كان يقضي الكثير من الوقت ويستنزف الجهد الوفير في متابعة آخر تطورات هذا المجال ليشاركه مع جمهوره المتواضع.

لكن لسوء الحظ لم يحظَ ستاس بالمشاهدات التي كان يطمح لها. فقد كان تطوره ووصوله إلى مستوى الشهرة الذي يريده، يتطلب سنوات طويلة إذا ما واصل على هذا المنوال. فقرر قراراً أطاح بحياته فيما بعد.
في بادئ الأمر اتجه ستاس إلى مشاركة يومياته مع زوجته فالنتينا فلاحظ إقبالاً واسعاً من قبل الجمهور وارتفعت لديه نسب المشاهدة عندما تمادى بالمقالب الخطيرة الواقعة ضحيتها شريكته المسكينة التي لم تكن تقوى على الاعتراض. فقد كان يعاملها بقسوة وسوء كبيرين أمام العدسة لأن هذه القصص كانت تجني نسب هائلة من المشاهدات والمتابعين وبطبيعة الحال، الأموال.

كانت المقالب مقبولة حتى بدأت تتصاعد خطورتها شيئاً فشيئاً. لأن طلبات متابعي ستاس المريضة لم تكن تتوقف عند حدود معينة فقد كان يعذبها مقابل مبالغ من المال يعرضها عليه المنحرفين.
بدأت بطلب رش رذاذ الفلفل الحار على وجه فالنتينا وانتهت بما لا يتخيله عقلك.

في يوم ما وعندما كان ستاس يعرض بثاً مباشراً. طلب أحد متابعيه طلباً غريباً للغاية وهو أن يخلع ثياب زوجته ويضعها في الشرفة في برد روسيا القارس لمدة خمس عشرة دقيقة مقابل مبلغ من المال قدره ألف دولار .
ستراهن وتقول كلا، لن يفعل. ليس إلى ذلك الحد، لكنه فعل، بل هو حتى لم يعترض ولم يطلب رأي فالنتينا التي كانت تتوسل إليه بأن يعفيها من تحدياته مع متابعيه. كانت رافضة الفكرة حتى إنها هرعت إلى المطبخ وأخذت سكيناً تهدده بها لكنه سرعان ما انقض عليها وألقى بها في الشرفة عارية بعد أن أجبرها على خلع ملابسها بالكامل.
أغلق باب الشرفة عليها وكان صدى صوتها يأتي من هناك حيث ترجته أن يمنحها غطاءً تستر به جسدها العاري المرتجف الذي أصبح مادة لمرض زوجها .

بقيت فالنتينا محتجزة لمدة تزيد عن خمس عشرة دقيقة المقررة، فتح الباب وحملها إلى الداخل وأجلسها على الأريكة وبدأ يصرخ أنها لا تتنفس، لا تتنفس .

كان لونها شاحباً مائلاً للزرقة، وفي الوقت الذي كان نبضها فيه لا يُسمع، استمر ستاس ببث الحادثة بشكل مباشر وقطعاً لم يوقف البث، بل إنه كان يتعمد تصوير وجهها وجسدها الهالك من برودة الطقس عن قرب، لكسب تعاطف الناس وزيادة تفاعلهم معه. وحتى عندما أتوا المسعفين وأكدوا وفاتها بسبب هذه الحادثة، استمر ستاس في بثه الذي تجاوز الساعتين .

المؤلم في القصة أن الأطباء اكتشفوا فيما بعد أن الضحية فالنتينا كانت حاملاً. والمؤلم أكثر أن عقوبة ستاس كانت السجن لمدة خمسة عشر عاماً فقط. وهي عقوبة لا تتناسب مع الجريمة المروعة المرتكبة بحق شريكة حياته التي فقدت حياتها مع جنينها بسبب هوسه بالمال والشهرة.

أكاد أجزم أنك عندما قرأت هذه القصة طرأ على بالك نسخ عديدة من ستاس تتواجد بالقرب من محيطك ممن يلهثون وراء الأرقام الافتراضية مهما كان ثمن الحصول عليها .

ما إن بدأت ثورة الاتصال والشبكة العنكبوتية حتى طفح المجتمع بالوجوه العابرة والمحتويات الفارغة والأفكار المُعلّبة التي أصبحت تتردد على الألسن دون علم أو معرفة، فكل ما تحتاج إليه لتصبح أحد مشاهير هذا الزمن الأغبر هو جسد مُرّكب من أطباء مختلفين أحدهم منّ عليك بأنف إيراني لا مثيل له، والأخر ركّب على جسدك مؤخرة سليكونية تايلندية تسهل عليك مهمة الانتشار بالحركات الاستعراضية الرخيصة، حتى أصبحت قطع غيارك مختلفة المنشأ والصنع.

وإذا كنت ممن لا تتوفر لديهم المادة والرغبة في أن تكون كهؤلاء. ولكنك لا تزال تطمح للشهرة أو الشهيرة كما أحب أن اسميها، فيكفي أن تختار شريك حياة إلكترونياً من الصنف الأول لتحصل على تذكرة الدخول إلى هذا المعترك المخيف.

ربما يتبين لكم من خلال ما ذكر أعلاه أنني من أشد المعارضين للدخول إلى عالم الشهرة والنجومية من حيث المبدأ بشكل عام. لكني في الواقع أقر باحتياج كل فرد منا إلى غريزة لفت الانتباه والبروز. فتقول العلوم النفسية أن حاجة الفرد لحب الظهور والاستعراض يضاهي الاحتياجات البيولوجية والعاطفية أو الجسدية الأخرى.

ولكن عندما تصل إلى مبالغة كبيرة في إبراز ذلك مصحوب بإذلال واحتقار من نصبوك على أنفسهم فهيماً عليماً دون أن تفقه من العلم شيئاً، هنا تتغير المعايير وتتحول الحالة من غريزة نفسية إلى مرض أو هوس له عدة أضرار جسيمة على المجتمع وأفراده.

هنا أتذكر السؤال الذي طُرح عليّ ألف مرة ومرة من قبل المحبين: لماذا اخترت أن تكون مجهولاً متخفياً في ظل نيلك لهذه الشهرة الواسعة؟
ربما لدى الأغلبية منكم جواباً تقليدياً حول هذا التساؤل وهو يتمحور حول الحس الأمني الذي يجب أن يتمتع به ناقد جريء في بلد تحكمه جماعات خارجة عن القانون تُحرك قواها علاقات شخصية محرّمة مع فلانة وعلانة.

فمن منكم ينكر حقيقة أن كل ذات جسد سليكوني منفوخ ومنحوت لديها فصائل كاملة وفريق من الضباط والمسؤولين الكبار بإمرتها تستنجد بهم في الصغيرة والكبيرة.

وبالتالي فإن المهمة النقدية قد تكون على المحك بسبب هذا التسيب النابع من ذوي الرتب العسكرية (القانونية) وبعض الجماعات الخارجة عن الدين والقانون.

هذا هو الجواب التقليدي الذي التمسته منكم طيلة السنوات الماضية. لا أعرف مدى صحته لكني سأدع تقييم ذلك للقارئ بعد أن أجولكم برأسي قليلاً وأطلعكم على بعض الحقائق المغلوطة التي لطالما وددت مشاركتها.

كنت أشارك، في يومٍ ما مع أصدقائي وأقربائي، بعض الآراء النقدية التي تتمحور حول الظواهر السلبية والشخصيات الهزلية التي تسيطر على مجتمعنا في منصاتي الشخصية .

وبالرغم من تواضع جمهورها وأرقامها إلا أن الانتقادات كانت لاذعة بعيدة بعد السماء عن الأرض من الناحية المنطقية. فما إن تبدأ باستنكار حالة معينة حتى أطلقوا عليك سيلاً من الاتهامات التي لم تقترفها يوماً.

في الوقت الذي كنت أنتظر فيه ترحيباً بفكرة ناقدة قد تساعد بتصحيح المسار في أمر ما، عانيت من رفض قاطع لتفهمها لأنك كناقد واضح تروج لنفسك قبل أفكارك عن طريق المعلومات التي تشاركها عن ذاتك.

فتبدأ أصابع الاتهام بالإشارة إلى أخطائك رداً على سعيك بتصحيح الخطأ الأعظم.

أذكر عندما قررت البدء في هذه المهمة كان المجتمع غارقاً بالأرقام يبحث عن الظهور والأضواء. تكاد أن تكون مهمة إقناع الناس بسمو هدفك وخلوه من المصالح والغايات الشخصية شبه مستحيلة،

وأنا أوافقهم الرأي في ذلك، فهناك من يستغل شهرة غيره عن طريق التسلط عليه ليضيف إلى رصيده القليل من الانتباه والاهتمام. إنهم كُثر إلى درجة أن هذه الطرق أصبحت مستهلكة ومكشوفة لا تخلو من الغباء والبلاهة. فهل سأضع نفسي تحت الشبهة مع هذه الفئة التي تسبب لي ولكم الغثيان؟

لم تكن هناك شرارة واحدة أدت إلى توجهي نحو إخفاء الشخصية، بل هي عدة شرارات تراكمت جميعها لتنفجر كالبركان الثائر ناتجة هذا الكيان المجهول وذكرت أعلاه بعضاً منها.

لكن عليك أن تدرك أنه قرار قاس للغاية. تخيل لو كنت أنت مثلي تماماً، إحدى أشهر الشخصيات في بلدك. أن يتداول اسمك في المواقع والمنصات والقنوات الإخبارية والحوارات المهمة بين شخصيات مؤثرة.

أن تكون صانع رأي وصاحب قرار صائب في أغلب الأحيان .يُعتمد عليك كمصدر موثوق غير قابل للخطأ أو حتى الشك، لديك ملايين المحبين وأصبحت أنت الفكرة الحية التي تتجول في رؤوسهم بحضورك أو بدونه.

أن تمضي بين العابرين وتسمعهم يتداولون قصصك وقضاياك منبهرين بهذا الشبح الخطير. يتمنون رؤيته وتقبيله وفرش دربه بالهدايا قبل الورود، لكنك على الرغم من ذلك تلتزم الصمت وتتابع التجوال بينهم كواحد منهم منبهر مثلهم وغير مصدق ما إذا كان هذا المجهول بشراً أم كائناً فضائياً غريباً.

إذا أردت أن تكسب ثقة الملايين من الناس عليك أولاً أن تخضع لبعض الاختبارات القاسية التي لا يمكن تخطيها وهذا كان أصعبها .
أن تثبت أن الهدف أسمى بكثير من مغرياته الجامحة. فمن البلاهة الإطاحة بسور الثقة العظيم الذي بنيته من أجل حالة مؤقتة من الرغبة وإشباع الذات والانتصار الوهمي الذي قد يهدم فوق رأسك ما شيدته بسنوات طويلة. ولن تقوى على تعميره مرة أخرى.

لذا فأنا هنا لا أقوى على القول إن الشهرة لم تغريني يوماً ولم أتطلع لها في أحلامي ويقظتي، لأنني وكما أسلفت لا أزال أومن بأن حب الظهور هي حالة غريزية صحية تخترق دواخلنا وتدفعنا نحو التميز والإبداع والتقدم .
وهي ليست عيباً نخجل منه أو نستنكره بل هي سمة تدفع براكين الإبداع والخير التي بداخلنا للثوران.
لكني وجدت الهدف أسمى من أن تلطخه احتمالية أو فرضية نكراء، فكان هذا أول التنازلات لكسب الثقة وإخلاء مصالحي مما أقوم به.

عودة إلى السؤال وتوضيحاً لما ذكرت أعلاه لأنني أشعر بتشتتكم الآن، ما دفعني إلى الاختباء وراء هذا الكيان هو ليس الخوف من الملاحقة، ولست أخشى العباد في ظل وجود إله عادل قال لعبده (أنا أقرب إليك من حبل الوريد). الحقيقة هي لأني أقدس أفكاري ومبادئي التي تخدم مجاميع كبيرة أكثر من رغبتي بإشباع غايات فردية تلقي بمنافعها على صاحبها فقط.

أنا أظهر الاحترام لكل من رسم لي شخصية البطل الذي يحتاجه في عالمه، فضلّت أن أكون آلاف الشخصيات الخيالية التي جسدتموها من خلال حروف ومواقف وصور بسيطة متحركة على أن أكون الشخصية الحقيقية التي ربما لن تتناسب مع رسمتك التي أخشى أن تمزقها فيما بعد.

أنا مجهول، معروف أكثر من المعروفين، وقريب بالحد ذاته من المحبين والمعادين، أنا أفكار متعددة في رأس مُتعب.
أنا أنتم جميعاً في جسد واحد، وسأظل.

الفصل الثالث

هل تعرفهم؟

سلّة الشخصيات المثيرة

أينما تنظر ستجد أن عالمنا يحوي الكثير من العنف والقصص المؤلمة التي يرفض ضميرك تقبلها لقسوتها .

هل سمعت بقصة جيني هاينز؟

إنها إحدى القصص التي لن تتمكن من نسيانها بعد أن أطلعك عليها مهما اجتهدت وحاولت.

جيني هاينز هي امرأة إنجليزية وقعت، في طفولتها، ضحية الاغتصاب والتعذيب بشكل متكرر ومستمر من قبل والدها وهي في عامها الرابع فقط. هذه الطفلة دخلت التاريخ كأسوأ حالات انتهاك الطفولة في البلاد.

في عام 1974 انتقلت عائلة هاينز من لندن إلى أستراليا، حيث قرروا العيش هناك. كانت جيني تبلغ من العمر أربعة أعواماً فقط. وهو العمر الذي بدأ فيه والدها بالاعتداء عليها جسدياً واستمرت هذه الانتهاكات بشكل يومي دون علم والدتها أو إخوانها الصغار .

تقول جيني: كانت اعتداءات والدي محسوبة ومخطط لها. كانت متعمدة، وقد استمتع بكل دقيقة منها.

لقد سمعني أتوسل إليه ليتوقف، وسمعني أبكي، ورأى الألم والرعب الذي كان يتسبب فيه، ورأى الدم والأضرار الجسدية التي خلّفها، لكنه في اليوم التالي كان يعيد كل ما فعله سابقاً مرة أخرى.

لقد أوهمني بأنه يستطيع قراءة أفكاري، كما وهددني بقتل والدتي وشقيقي وأختي إذا فكرت فقط بالأمر. فما بالك بما يفعله إذا أخبرتهم عما أتعرض له من قبله؟

وأضافت: لم أكن أشعر بالأمان حتى عندما أفكر، ولم يعد بإمكاني التفكير فيما كان يحدث لي.
وبالرغم من الإيذاء الجسدي الذي تعرضت له جيني، إلا أنها تم حرمانها من الرعاية الطبية من قبل والدها.
فلم تتمكن من علاج آثار الاعتداء الجسدي والضرب حتى يومنا هذا. بل تطورت لتصبح عاهات دائمية ستذكرها بهذه الطفولة المرعبة مدى الحياة.
ظلت الاعتداءات على جيني مستمرة حتى بلغت أحد عشر عاماً.
عندما عادت أسرتها إلى لندن وانفصل والديها تخلصت جيني من خيال الوحش الذي كان يطاردها بشكل يومي مستمر داخل عشها الآمن.

هل تساءلت وأنت تقرأ قصة جيني عن سر قوة هذه الطفلة التي تمكنت من تحمل كل تلك المأساة دون أن تخبر به أحداً؟ بل دون أن تفكر به حتى؟
جيني استخدمت تكتيكاً غير اعتيادي يساعدها على تخطي الرعب الذي عاشته.
إذ ابتكرت شخصيات خيالية في عقلها تجاوزت 2500 شخصية. كان العيش مع تلك الشخصيات وسيلة للتخلص من الألم والقسوة المفروضين عليها.
وهذه الحالة في علم النفس تسمى باضطراب الشخصيات المتعددة أو اضطراب الهوية الانفصالي. هذا الاضطراب يظهر هويات الشخص المختلفة

وكأن عملاء خارجيين سيطروا على الشخص المعني بقوة خارقة لا يمكنك التحكم بها. اختصروها أجدادنا القدامى حين لخصوا هذه الحالة بكلمتين: ركبه جني. وصفوه بأنه شيطان أو روح خارقة تخترق الجسد كعقوبة إلهية على أفعال سلبية سابقة أقدم عليها هذا الشخص.

لكن علم النفس يشرحها من منظور علمي مختلف ويؤكد بأن هذه الهوية الخارقة التي تسيطر على جسد هذا الشخص قد تكون شخوصاً آخرين لهم قصص مختلفة. فالأول مات بطريقة مأساوية دراماتيكية والآخر عانى من صدمة ساحقة وغيرها من القصص العديدة الممكنة .

أما جيني فعاشت مع تلك الشخصيات مدة طويلة ودخلت التأريخ كأول حالة في أستراليا أو ربما في العالم بأكمله التي تأخذ فيها المحكمة بشهادة ضحية مصابة بهذا الاضطراب. فإن جيني شهدت للمحكمة بست شخصيات مختلفة. بدأتها بشخصية سيمفوني وهي الطفلة التي تبلغ من العمر أربعة أعواماً فقط.

كان عليكم أن تلاحظوا الفوارق العجيبة بين الشخصيات الست التي أدلت بها جيني عن شهادتها.

فعندما كانت جيني تحادث المحكمة بصفتها شخصية سيمفوني، كان حديثها أكثر إشراقاً وصوتها أعلى بكثير من صوت جيني .

تقول جيني للقاضية: شخصياتي العديدة كانت دفاعاتي ضد الأذية التي كنت أتلقاها من والدي، فقد عانت سيمفوني من سوء معاملة أبي الذي لم يكن يعلم أنه في الواقع كان يسيء لها وليس لي.

أما شخصية ليندا التي شهدت أيضا في المحكمة من ضمن الشخصيات الستة التي تعيش داخل جيني، فقد كانت امرأة شابة وأنيقة مهتمة بالتعليم والعلاقات الاجتماعية مع الآخرين .
كان نتاج هذه القضية التاريخية التي تم فيها أخذ شهادة ست شخصيات مختلفة لمريض مصاب باضطراب تعدد الشخصيات هو النطق بالحكم على والدها ريتشارد هاينز بالسجن لمدة 45 عاماً بعد أن اعترف بما شهدت به جيني وشخصياتها المتعددة.

كانت هذه إحدى القصص الملهمة التي تعلمك كيفية التغلب على المآسي والإحباط من خلال التنقل داخل شخصيات مختلفة لا يهم إن كانت سلبية أو إيجابية.
وبالرغم من كوني شخصاً يؤمن بالعلوم الإنسانية ومن ضمنها علم النفس بكافة أقسامه وفروعه المختلفة، إلا أنني هنا أرفض قطعياً أن يتم تشخيص هذه الحالة كاضطراب صحي خطير. بالله عليكم لنتكلم بواقعية قليلاً من منا يعيش بشخصية واحدة؟ ألست أنت الشخص الذي يرفض كل معالم البذخ والمظاهر المادية وتنتقد كل من يبرز ثرواته ومقتنياته للتعبير عن رفاهيته أمام الملأ؟ لكنك حين تحصل على عربة أحلامك تكاد تجوب بها نصف العالم متباهياً مسروراً داعياً الله أن يصادفك كل من تعرفه ومن لا تعرفه.

جميعنا نعيش بشخصيات مزدوجة يرادف إحداها الآخر. ينتقد حكيمها باطلها، يؤدب كبيرها صغيرها، نقول فنعود عن قولنا، ننصح فنقع ضحية غرورنا، نحن نعيش بمزاجيات مختلفة، نختار منها ما يتناسب مع غاياتنا ومطالبنا، فأنتِ تحادثين صديقتكِ المفضلة بغباء وفوضى عارمة كما لو أنكِ تحادثين نفسكِ بتجلي كبير. لكنكِ لا تفعلين ذلك في أولى أيام الخطوبة حيث يتطلب منكِ أن تكوني يقظة ملمة بكل التفاصيل والمواضيع التي تُطرح لاختبارك من قبل العريس ووالدته التي لا يعجبها العجب. ستنتقلين من الشخصية العفوية الساذجة إلى العالمة المبجلة التي لا ترتكب من الحماقة إلا شيئاً قليلاً.

نحن جميعاً نحظى بهذا المزيج العجيب من التناقضات والازدواجيات الغريبة. إذا لا تستطيع ملاحظتها في نفسك فسوف أسهل عليك المهمة من خلال التوجه إلى أشخاص مقربين عليك للتعرف على شخصياتهم المتعددة والكثيرة. ولكي أساعدك أكثر دعني أقدم لك سلة من الشخصيات التي حتماً ستذكرك بأناس كثر تعرفهم بصرف النظر عن كونهم محببين أو غير مرغوبين بالنسبة إليك.

بورتريه رقم 1
المصيبة تأخذ شكل دائرة
الشخصية البندورية

هي الشخصية التي تأخذ شكل دائرة في سلوكها اليومي، تنتهي دائماً من المكان الذي تبدأ منه، وتتخذ من هذا الدوران أسلوب حياة، تتميز هذه الشخصية بإحاطتها بكل العلوم والمعارف، مثلما تحاول الإحاطة بكل الاختصاصات وهي أشبه برحم هائل يشمل كل ما يعرفه الناس وما لا يعرفونه ! يمكنها التحدث عن أي شيء وكل شيء دون أن ترتبك أو يبدو على ملامحها شيء من الشك، هذه الشخصية اليقينية تستمد ثقتها بالعادة من جهلها المتأصل، فهي منفتحة على فراغ هائل تستطيع أن تنهل منه العجب من الهلاوس والهذيانات الأسطورية، وهذا ما يجعلها تعتقد أن كل المعارف والعلوم والاختصاصات وحتى أشد العلوم تعقيداً هي في حقيقتها سهلة وبسيطة وقابلة للتحقق دون اطلاع، وهي طيعة بين يديها، يمكنها أن تشكلها مثلما تريد، تشكلها من دون مواد أولية، من الخيال الذي يفصلها عن الواقع، ولذلك و بالعادة تكون هي نفسها منفصلة عن ذاتها، مظهرها الخارجي لا يمت بصلة لجوهرها. ملبسها ومقتنياتها وطريقة قيامها وجلوسها تناقض تماماً ما يبدو أنها تؤمن به في خطاباتها.

لا تستغرب عزيزي القارئ عندما تسدد لك نصائح حازمة فيما يخص أصول الحشمة وآداب الحياء في الوقت الذي ترتدي فيه ما يناقض إرشاداتها بشكل يثير الضحك والرعدة .

فذاتها ليسَ موضوعاً للتحقق من جودة نصائحها، لأن ذات العارف دائماً متعالية عن مريديها، لذا تمنح هذه الشخصية لنفسها حرية التحدث بكل المواضيع دون حدود أو قيود. تنتحل صفة المحامي والطبيب والخبير النفسي والاجتماعي والإعلامي والمرّوج بل وحتى البقال الذي يبتاع الخضروات في ركن زقاقك. ويمكنك أن تتفاجأ بتعليق لها عن فيزياء الكم تجادل فيه عالم في جامعة مرموقة بوجهة نظر بدائية مصنوعة من الكلمات المرتبكة، ويمكنها بارتياح أن تسدد رأياً في الأدب والروايات التي لم تقرأها في حياتها، بينما تعترض على تشخيص نفسي من مرشد مختص بعلم النفس ثم تتبرع بتشخيصها الخاص للحالة المستعصية! وبالرغم من علمها الواسع بكل المجالات والفتاوى التي تقترفها عن المعرفة والنجاح إلا أنها بالعادة تعيش حياة الضياع والفشل لعدم قدرتها على تطبيق ما تسدده من نصائح للجماعات الغفيرة المسكينة الذين يصادفونها آسفين.

ان الشخصية البندورية لها طبيعة البندورة (الطماطم) التي تحشر نفسها في أي طبخة، وما إن راقبت قدرتها الفذة على التحول ستلاحظ أنها تتحول إلى عصير لزج يُعامل معاملة الفراولة! مع جل احترامنا وحبنا للطماطم؛ لكنه مثل عراقي لم أستطع تجاهله، بكل عزة لطامة يا طماطة!

هذه الشخصية عنيفة بالعادة ولا تقبل الحوار، تفرض رأيها دون أن تسمح بمناقشته، لأنها تعي جيداً أنها لو تعرضت لأي نوع من النقاش الجاد ستنكشف على الناس بكل هشاشتها المروعة. وبالرغم من كل هذا الجبروت الذي تظهره في سلوكها وتعاملاتها اليومية، إلا أنها واحدة من الضحايا الذين تعرضوا للتنكيل اللفظي أو حتى الجسدي في مراحل العمر الأولى، الطفولة أو المراهقة، تعاني هذه الشخصية من جروح عميقة جراء تعرضها

لتكميم الأفواه والتحقير وأحياناً إلى سحق وجودها من خلال بعض الإجراءات التعسفية التي تفرضها عليها الأسرة أو المجتمع المحيط، فقد تكون هذه الشخصية قد أجبرت على الصمت المُر والذي يخزن في طبقاته غضب مدوي يغور عميقاً في ذاتها الذاوية ثم يشطرها إلى نصفين؛ ذات منغمسة، مرتعدة ومهزوزة بيأس، وذات أخرى نفاشة ومنتفخة و قابلة للانفصال عن الواقع لتقترب أحياناً من الانفجار في أي لحظة،

سيكون لهذه الشخصية جلاد قديم حفر بيديه كل الندب المتقرحة في روحها، ستعجز عن استدعائه من الماضي وتصفية حساباتها معه، فتضطر لارتداء عباءة الجلاد نفسه لتدرأ نفسها عن الخطر، وسيكون الجلاد الذي غمسها سابقاً بالمرارة هو نفسه الذي سيحميها من شرور العالم، وبذات القيمة والأهمية ستحاول هذه الشخصية تعويض نفسها عن ما فات، عن كل تلك الأيام التي سحقت فيها ذاتها ومنعت من إبداء الرأي أو الاشتغال على هوية ذاتية، لذلك ستصبح بندورية، تدور في كل مكان وزمان وتتحدث في كل شيء بنفس الطريقة التي اعتادت عليها، تنتهي في كل شيء من النقطة التي بدأت منها، ثم هكذا تظل تدور حول ذاتها مثل قصة رتيبة ستنتج عشرات الجلادين الذين ينسخون وجه جلادها الأول.

بورتريه رقم2

الشخصية الاستجدائية المتعالية
الحياة بوصفها وجبة مجانية

شخصية طاووسية، تبدو شديدة الاعتداد بنفسها، منهمكة طوال الوقت بدس رسائل خفية في أحاديثها إلى كل من يجالسها للمرة الأولى؛ غالباً ما ستعثر عليها في مطعم أو مكان عام، تحدث من يجالسها عن مكانتها الاجتماعية الرفيعة، و يسري في نبرة صوت صاحبها شيء من التكبر والتباهي، تغلف نفسها بحكايات متخيلة عن حسبها ونسبها وقوة تأثيرها على العالم، وغالباً ما يتضمن كلامها تهديدات لا تنتهي، تلغزها في سبيل المزاح، لكن وعلى الرغم من هذا العرض المسرحي الفاخر؛ ستتفاجأ عزيزي القارئ حال وصول فاتورة المطعم باختفائها كلياً وبلمح البصر من المشهد، وغالباً ما ستلتقط هاتفها وتفتعل مكالمة مهمة .

هذه الشخصية بالعادة تفضل أن تعيش بالمجان؛ تتكل على كل معارفها وأصحابها في تسديد فواتيرها الشخصية، تتصرف في بداية أيَ تعارف بلطف شديد، ورقة متناهية، تحكي قصصاً مسلية ومثيرة للضحك،

وبعد أن يقع أصحابها في مصيدة جلساتها الممتعة، تبدأ بالشكوى والتبرم من أحوالها، حتى يتسرب للناس شعور عميق بالمسؤولية اتجاهها، وهكذا سيعلقون إلى الأبد بدائرة من الاستغلال المادي والمعنوي الذي لن ينتهي،

ينصب جل تركيز هذه الشخصية على الظفر بهؤلاء الناس الذين تعتبرهم أدوات بشرية ساذجة ترفدها بالمعيشة المجانية لتحافظ على أكبر قدر ممكن من مواردها المالية دون إنفاقها. هي شخصية لو خيرتها بين العيش بكرامة حقيقية مقابل إنفاق خمس دخلها الشهري وبين خيارات أخرى، ستختار حتماً أن تعيش بلا كرامة.

إنَ كل القدرات الاستعراضية التي تتمتع بها هذه الشخصية عادة ما تكون مجرد أدوات صيد ينتهي مفعولها مع آخر ما يمكن أن تسلبه هذه الشخصية من الآخر.

بالعادة ما تكون هذه الشخصية ضحية عائلة مفككة، تفتقر لأقل مقومات العيش الكريم، مهددة بالانهيار الاقتصادي الكامل في أي لحظة، وهذا ما يدفع هذه الشخصية مع انخفاض مستوى وعيها إلى الشعور العميق بانعدام الأمان، وهي في محاولة مستمرة لاستعادته من خلال ادخار أكبر قدر ممكن من الأموال.

تؤمن هذه الشخصية بأنها تحقق العدالة بسلب أموال الناس بهذه الطرق الملتوية دون سرقة أو تحايل، فكل الناس بالضرورة مدينة لها بسنوات الطفولة الأليمة، وكأنه دين يقع على عاتق العالم بأكمله، تسديد كل الفواتير الخاصة بها؛ لأنها مؤمنة بأن البشرية كلها مسؤولة عن كل ما حدث لحياتها في الماضي ويجب عليها أن تعوضها عما فات بأي طريقة كانت.

بورتريه رقم 3

الشخصية البلاستيكية
وردة تعيش طويلاً في محل الدباديب

انتباه، هذه الشخصية مخصصة للعرض فقط، ممنوع اللمس والاقتراب، سريعة الاشتعال والانفجار والتفتت من الوجود.

هذه الشخصية لا تستطيع أن تُعّرِف نفسها من الداخل، لأن كل ما تعرفه عن نفسها هو المظهر الخارجي فقط،
إذ لا يمكنها أن تتعرف على ذاتها بلا مرآة عاكسة لمظهرها، شخصية تؤمن أن وجودها يقتصر على كيانها المادي، ومن هنا تبدل هذه الشخصية بجس نبض المحيط من حولها، والذي تعتقد أنهم يشهونها بنظرتهم نحو ذاتها، وبالرغم من وضعها الغريب في محيطها الاجتماعي إلا أنها من أكثر الشخصيات انسجاماً مع تعريفها الخاص لنفسها، فهي لا تطلب أكثر من أن تُعامل كجسد فقط، ولا تنتظر من أحد أن يُقيمها بما ليست عليه،
وانطلاقاً من هوسها الواضح بجسدها وهو هويتها الوحيدة تتولد لديها رغبة شرهة بتغيير هندسة شكلها وجسدها طوال الوقت. نتحدث الآن عن ظاهرة تفشت مؤخراً سُميت بهوس التجميل. وتحديداً تلك الحالات التي تعاني من قلقاً مرضياً مستمراً حيال مظهرها الخارجي .
غالباً ما تكون هذه الشخصية ضحية لمعايير علامات الجمال التي تحددها البيئة وتفرضها على كلا الجنسين.

فكثرة البرامج والإعلانات ورغبة الناس بالتشبه بالمشاهير جعلهم يدورون في حلقات مفرغة للوصول إلى الكمال المزعوم.

ولأن هذه الشخصية لا تعرف كيفَ يمكنها التعرف على عالمها الداخلي، ولأنها لن تفهم المعاني السامية في القيم غير المحسوسة، فأنها تفتقد للهوية الشخصية المؤثرة أو الكاريزما؛ لذا تضطر لاصطناع طريقة مزيفة في الحديث والإيماءات، ويمكنها أن تدعي سلوكاً لطيفاً مُختلقاً من أجل الوصول إلى مبتغاها.

المحرك الذي يحفزها على المضي قدماً هي المنفعة الخاصة التي لا تقوى دونها. ذلك لأنها تؤمن أن جسدها يجب أن يُكافئ طوال الوقت، وستكون من النتائج الطبيعية لجسد جميل ومشتهى بهذه المواصفات المثيرة أن يحصل كل مرة على ما يريد عن طريق اصطناع ميزة جديدة مضافة لهذا الجسد.

لو رأيتها في إحدى أماكن السهر الفاخرة فإنها حتماً ستجذبك من الوهلة الأولى بالطبع، فكم مرة ستحظى بمصادفة قوالب بلاستيكية سليكونية تتنقل على هيئة إنسان، تصطنع الجلوس والحركات وتصطاد فرائسها بعناية وإتقان. تتشبه بالإنسان الحديث لكنها في الواقع جسد مجوف وروح ضائعة وهوية منزوعة الدسم.

يمكننا أن نفهم هوس الشخصية البلاستيكية بالتزييف الخارجي إذا ما أدركنا أن مظهرها هو أكبر استثماراتها التي عملت عليها طويلاً، وبهذا يمكننا تعريض أي شخصية تفتش في جيوب الآخرين عن الذهب والألماس والبرايندات العالمية إلى أشعة أكس راي نفسية، وسنكتشف أن هياكل هذه

الشخصية متشابهة من حيث الرغبة الهستيرية في تحصيل الكنوز عبر الجسد، وبهذا يكون هذا الجسد بمثابة جرس إنذار للأجيال القادمة التي ستؤثر وتتأثر بهذه الشخصية وبطريقتها السهلة لتحصيل الأموال والشهرة والعشاق على حدٍ سواء.

بورتريه رقم 4

الشخصية الكريستالية
المتعة بوصفها لعنة

هذه الشخصية هي شخصية مُتعية من الطراز الرفيع، أي إنها تستغرق في المتع حتى رمقها الأخير، تفهم الحياة على إنها حقل تجارب خصبة لكل ألعابها وتسلياتها، تبدأ باللهو مع ذاتها في البداية، فتعرض نفسها لأشد أنواع التجارب خطورة، على كل المستويات، العاطفية، الاقتصادية والصحية، ومن ثم تبدأ من التململ من لعبة البطل الواحد فتسرب اللعبة إلى آخرين حتى تجد نفسها في نهاية المطاف متورطة بجريمة كاملة من عملية احتيال نفسي وعاطفي وصحي يقع ضحيته كل من لم يستطع أن يفلت من قبضة هذا العالم الفردوسي الزائف.

هذه الشخصية لا تستمتع إلا من خلال المراوغة، إذ يمكنها الاستمتاع بمستويات مختلفة من ذكائها حين تبدأ بالتحايل والكذب واللعب على الحبال، ولأنها ماكرة بطبيعتها، فهي تجد في المكر لذة لا تُقاوم،

سيما وأن هذه الشخصية لا تعتقد أن الاحتيال يندرج من ضمن الرذائل، فهي في ممارسة الخداع تعبر بشكل طبيعي وانسيابي عن ذاتها المتحايلة والتي تجد أنه حق من حقوقها، تدليس الحقائق من أجل بلوغ الهدف، فغاياتها دائماً تبرر كل الوسائل المتاحة.

هذه الشخصية إبليسية بشكل أو بآخر، وأنا هنا لا أطلق أحكاماً البتة لكني بصدد التصنيف والوصف،
إذ تميل هذه الشخصية ميلاً شديدة نحو أي فاكهة محرمة، شديدة الهوس بالممنوع وممسوسة بكل ما يدمر الإنسان بطيئاً من خلال الانغماس بالمتع اللحظية.
ولعل أبرز الصفات التي تتمتع بها هذا الشخصية هي الكذب. وربما تُصنف هذه الشخصية هي الأكثر احتياجاً للكذب من بين سائر البشر، وبهذا تطور دائماً أساليب مبتكرة وشديدة الإقناع في كل ما يخص تزييف الحقائق،
وشيئاً فشيئاً تصبح ذاتها هي الأخرى مُختلقة بشكل كامل ولكنها هذه المرة ومن شدة الكذب تبدو وكأنها حقيقية ولامعة مثل شمس لا يغطيها غربال.

لذلك تختار هذه الشخصية بالعادة أنا تلمع مثل الكريستال كي تجذب حولها أكبر قدر من الضحايا، فتقتني أغلى السيارات الفارهة، وترتدي أشهر الماركات العالمية، وبالرغم من أن هذه الشخصية ستكون مدمنة على أشد أنواع المخدرات والمشروبات الروحية إلا أن خطورتها تكمن في الكمائن العاطفية التي تنصبها للآخرين؛
فيصبح صاحب هذه الشخصية (دون جوان) محطم قلوب العاشقات والعشاق، ومحطم أيضاً جهازهم العصبي،
ذلك لأنه لن يكتفي بتدمير الآخرين عاطفياً، بل صحياً وذهنياً واقتصادياً .
هذه الشخصية ستُذكرك بحجر الكريستال. غالباً ما تكون لامعة وشفافة من الخارج.
إلا أنها سوداء متفحمة في جوهرها. ستتشظى دونما شك في محيطها القاتم.

الفصل الرابع

أنت بطل

المحتال رائج الآن

بعد المتغيرات السياسية التي عصفت في البلد آخر عقدين من الزمن، وعجز الحكومة العراقية في معالجة فساد كلا المجالين الأمني والسياسي، فقد المواطن شعور الأمان والاطمئنان في مأواه، ولذلك أسباب عديدة .

فقد انتقل العراق وأخيراً من نظام الدكتاتورية القمعي إلى النظام الديمقراطي الذي يضمن العدل والمساواة للمواطنين كافة. وعلى الرغم من أن هذا النظام يرجح كفة العلم والمعرفة على القوة والعنف، إلا أن تجاربنا معه جاءت على العكس تماماً. فلم نعش بالسلم الموعود الذي يروج له هذا النظام من أيام أثينا القديمة. بل إن نتائجه أتت على المواطنين بمعانيها المتناقضة .

تحول مبدأ فصل السلطات الذي تدعمه الديمقراطية إلى فساد عارم راح ضحيته مستقبل الآلاف من الأبرياء.

فقد نجوا الرعايا من الدكتاتور الطاغي حتى ظنوا أنه لن يأتي مثله ولا بعده، لكن هذا النظام خلق رؤوس دكتاتورية متعددة واسعة والانتشار يمارس كل منهم طغيانه على ضحاياه ضمن نطاقات معينة. فلم يعد المواطن يشعر بالأمان على نفسه أو عائلته أو ممتلكاته كما يجب. ولم يعد ينظر بتفاؤل إلى مستقبله ومستقبل أطفاله وأحفاده. فعندما فقدت الدولة قوتها وضعف القانون الذي يُسيرها، سيطر على المواطنين شعور القلق والخوف والفزع من الآتي. واضطر أغلبهم إلى البحث عن أنظمة أخرى تحتوي على مخاوفهم. غير مدركين أن من لجأوا إليهم هم سبب دمار الدولة وكيانها.

فقد تشكلت أحزاب وتنظيمات سياسية ميليشياوية مستقلة. أوهمت هؤلاء المساكين أنهم الملاك المبارك الذي أنزله الله للأرض لإنقاذهم من هذا الظلم والجور. عملت هذه الجماعات المغرضة على استغلال خلفيات الناس الدينية والقومية والعشائرية وشكلت مجاميع على هذه الأسس التمييزية ليتمكن اتباعها من الانضمام إليهم في مصالح متبادلة. هات لي القوة والسلاح وسأمنحك الأمن والأمان الذي عجزت الدولة عن فرضه. فمنذ أن خُدع المواطن بهذه الوعود الكاذبة أصبحنا نشهد كل يوم ضعف آخر لمفصل آخر من مفاصل الدولة. وما يصيبني بالغثيان حقاً هو تذمر المواطن من ضعف القانون والدولة وكأنه بريء منه. ولم يتجرأ أحد منا على سؤاله أين كنت عندما ساهمت بذلك؟ أليس بديهياً أن تكون القوة المفروضة التي تتمتع بها هذه الجماعات هي ثمن ضعف الدولة الذي تدفعه أنت الآن؟ ألم يصبحوا أقوياءً وأبطالاً بسبب الأهازيج التي هتفت بها عندما نصبوا أنفسهم ملاكاً مباركاً أنزله الرب على الهالكين؟ ألم يأخذوا دور السلطة في المعاقبة والقصاص دون رقيب أو عتيد؟ ألم يستمدوا قوتهم من ضعف الدولة الذي ساهمت فيه عندما حالفتهم؟ حتى أصبح البلد مرسى لكل التنظيمات المسلحة والجماعات المجرمة التي تنتمي لكل شيء إلا للعراق والإنسانية.

أنا هنا لا أبرئ الدولة أو رجالاتها من البؤس القائم. ففي الوقت الذي أجرم فيه الجماعات المسلحة، أعي بشدة وجود الفساد المنتشر بين عناصر الدولة من خلال الرشى وبيع الضمائر والسرقات اللامحدودة. ولولا هشاشتها لما تمكنت هذه الجماعات من شرائها ولا اللعب بعقول هؤلاء المواطنين السذج. فقد تداخلت الصلاحيات وأصبح المسؤول أداة لهذه

الجماعات وفقاً لاتفاقيات مربحة تربطهما وبهذا تكون الدولة والمجرم وجهان لعملة واحدة، أحدهما يعمل بالقانون والآخر ضده. وكلاهما يجرم في البلد وقانطيه. فأنا أرفض قطعياً أن يلقي المواطنين لومهم على الحكومة والقانون الرخي. لأن مفهومي يعزز مبدأ أن الشعب هو من يحكم نفسه وليس حكومته. علمنا التاريخ أن الدولة تسقط باحتمالين لا ثالث لهما، إما انتفاضة شعبها وإما خيانة مواطنيها. سقطت الدولة مرات عديدة بأحد هذين الاحتمالين ولك أن تخمن أيهما. لو كان الاحتمال الأول لعشنا المجد الصيني بإنشاء جمهوريتهم الشعبية. وللمسنا الرفاهية الفرنسية بعد ثورتهم ضد اللامساواة والتمييزات الاجتماعية والاقتصادية.

لكنكم يا شركائي في الوطن لم تكونوا يوماً شركاء في الانتماء. فكل منا أخذ على عاتقه حماية معتقده ودينه وقوميته من (الوهم). أوهمنا الملاك المبارك أن لولاه لما بقي دين ولا طائفة ولا قومية. وإذا ما أردنا أن نحفظ كرامة معتقداتنا المقدسة لا بُد من التحالف الذي نعطيه الكثير ولا يعيد لنا شيئاً من الاشياء الوفيرة التي أخذها.

لذا فأنا لا أبكي اليوم على محاصيلنا الشحيحة. أنا أحارب الجفاف والقحط وانحباس المطر بطريقتي الخاصة التي تعصف علينا لاحقاً بنتائجها المباركة .

في الوقت الذي نعاني فيه من غياب القانون والقضاء العادل. وفي ظل عجزنا نحن كمواطنين من إحقاق الحق في الكثير من القضايا الإنسانية والاجتماعية بسبب الفساد الذي سيطر على الدولة، اتخذت على عاتقي مهمة القصاص الإلكتروني.

بعد القضايا العديدة التي تبنيتها في منصتي من محاسبة السراق من التجار الذي يبتاعون السلعة بخمسة أضعاف سعرها الأصلي للمواطن الذي لا علم له بما يدور حوله، إلى فضح أسماء المحتالين الذين انتحلوا صفة الأطباء ليجروا العمليات الجراحية دون علم مرضاهم بشهادات مزيفة. إلى نشر الأسماء المتورطة من الضباط ورجال الدولة بعمليات التغطية على الأفعال الإجرامية لبعض المشاهير والأسماء المعروفة. وبعد كل ما طرحته من مواضيع مهمة تحاكي واقعنا المرير هذا بأسلوب ساخر يخفف وطأة هذا البؤس الذي نعيش داخله ويجعل القارئ يتفاعل معه وكأنه فيلم كوميدي وجد للترفيه حاملاً رسالة توعوية مهمة لمن يأبه لها. أجد بعض التعليقات المحبطة التي غالباً ما تكون تساؤلات عن سبب استقصائي عن هذه الحقائق دون أن تتحرك الدولة خطوة إلى الأمام على الرغم من وجود الأدلة الدامغة التي تدعم القضية؟

عادةً ما يكون جوابي: نحن في العراق. هذا يعني العودة لما كتبت أعلاه. فإن أهم ما يميز الوطن بقيادته الضعيفة والأساس الهش هو التغطية على الأخطاء التي يقومون بها. فالحكومة الضعيفة لا تريد أن يثبت عليها هذا المعتقد. على العكس تماماً تجد أن أغلب العمليات التي تجدها في جداول برامجها السياسية، هي تلك التي تجعلهم أبرياء من الضعف والفشل الذي يلتصق بهم. لذا وبالرغم من العجز وملامح الانكسار الذي يسهل عليك ملاحظته في كل مجالات الدولة، إلا أنهم يولون الاهتمام لسمعتهم الشخصية أكثر من تلك التي تمثل الدولة بالعموم. لأن المس بسمعة أحدهم يعني تقليص فرص السرقة والنهب واستعطاف المواطنين في القادم

من الأعمال وأهمها الانتخابات الدورية. ولهذا تجدهم على أتم الاستعداد في مواجهة الشكوى التي تُطرح في أماكن عامة ذات التجمعات الغفيرة.

وكوني ممن يؤيدون مبدأ اضرب الظالم بالظالم، واهدف لنشر الحق والسلام لكسر الباطل الذي يحيط بنا ويعيق دوران عجلة الحياة. إلا أنني وجدتها فرصة مواتية لممارسة القصاص الإلكتروني متسلحاً بالجماهير الغفيرة التي يخشاها الظالمين .

إنك لا تخالفني الرأي عندما أجزم أن أصحاب السلطة والتأثير يخشون الشهيرة أكثر من القانون لتوغلهم بين أجهزته وسيطرتهم عليه. كان هذا ولا يزال أكبر الأسلحة المستخدمة للقضاء على هذه الطفيليات التي امتلكت السلطة والقوة من خلال شراء الذمم والرشا .

يقول أحد كبار المافيا الإيطالية إن أكبر نقطة ضعف تصادف العاملين بهذا المجال هي عائلته؛ لأنها ستكون بفوهة المدفع بأبسط تصادم لما تمتلكه المافيات من عداءات مستمرة ومعارك طاحنة.

أما المسؤول العراقي فإن أكبر نقطة ضعف تواجهه في مسيرة النهب والسرقة خاصته هي اسمه وسمعته، لان تلطيخها يعني خسارة ملايين الدولارات في المشاريع القادمة. هل سمعت يوماً بسارق يخشى على شرفه وسمعته؟ لن تسمع. صنُع في العراق حصراً وبسرية تامة.

وعن سؤالك، لا، أنا لا أصاب بالإحباط من نتائج الملفات الجاهزة التي أقدمها للعامة بكل قسوتها وبشاعتها وفظاظة فحواها. حتى وإن كانت الغاية منها هو تسليم المقصرين للقضاء من خلال فرضها كقضية رأي عام مرتكزة

على إثباتات وحجج قوية وتحقيقات عالية المستوى. لأني أعي أن الاحتجاز القانوني لهذه الشخصيات لن يستغرق سوى بضع ساعات. لكني أراهن على قوة تأثير الشارع العراقي عند طرح هذه القضايا للإعلام.

وبرأيي فإن هذه هي العقوبة الأشد التي يمكن أن تحظى بها. أن تستيقظ صباحاً وتجد نفسك رائجاً في كل المنصات. صدقني أنها اشد قسوة من حكم الإعدام، وإن شككت بالأمر، اسأل ضحاياها.

ملامح من الجندي المجهول

هل فكرت كم تبلغ ميزانية القنوات الفضائية أو المواقع الإلكترونية أو حتى الصحف والجرائد الورقية التي يخصصونها لمراسليها من أجل نقل الأحداث؟ هل تعلم كم يكلفهم تداول معلومة خاطئة تابعة لهم تُسيء لمؤسستهم؟ وماذا عن آلية الانتشار في كل بقاع الأرض وعبقرية التواجد بالقرب من كل الأحداث التي تقع في زمان ومكان لا تتوقعهما، هل لديك فكرة عنها؟

أن تكون مؤسسة إعلامية موثوقة وذات مصداقية عالية يعني أن تنجح بتنظيم كل الأمور المذكورة أعلاه وتنفق عليها مبالغ طائلة وجهود تنظيمية كبيرة لتمد جسور الثقة بخطى تمهيدية مع متلقيك تكبر أكثر فأكثر مع مرور الوقت والتجارب.

والآن تخيل معي أن تكون وحيداً، تسعى من أجل الحقيقة بمجهود فردي مفتقداً لكل أدوات التجنيد الصحفي. لا تمتلك أي عدسة توثق بها الأنباء ولا تمتلك حبراً تنثره على الورق ولا تمتلك مكبراً للصوت ولا هوية تخولك لدخول مسارح الجريمة والأحداث. ولا مدققاً لغوياً ولا مخرجاً أو مُعداً يملي عليك أساسيات العمل. ولا هنداماً أنيقاً تسرق به إعجاب المتلقين ولست ممن يتابعون المناسبات والمهرجانات والمجلات العالمية من أجل التماشي مع آخر صيحات الموضة أو تقليد تسريحة حديثة لديفيد بيكهام تسرق بها الأضواء.

لكنك رغماً عن ذلك، تحظى بمصداقية تتسابق كل الوسائل على انتزاعها منك، وتتناحر كل المؤسسات فيما بينها بما أتيحت من أدوات لتدرك ما أنت مدركه. أن تتواجد في كل مكان وزمان كالشبح ليس هناك من يسمعك أو يراك في الوقت الذي تسمع وترى به كل شيء. ربما تعتقد أني أسرد عليك الآن إحدى القصص الهوليودية الخارقة التي غالباً ما يكون بطلها محورها. لكني لست ناجحاً كثيراً بدغدغة المشاعر. ولا أشجع على إضافة بعض التوابل للحدث من أجل كسب إعجاب المتلقي الذي يدرك حتماً أن شيئاً ما هنا يفتقر للواقعية. لكني من ذلك النوع الذي يجسد الحقيقة كما هي. فحتى لو افتقدت معي لعنصر الإثارة والتشويق الذي يضيفوه على القصص الحقيقية في الأفلام ليجعلوها أكثر دراماتيكياً وتراجيدية .
أنا أرحب بفكرة الاستغناء عنه مقابل المشاعر الحقيقة وإن كانت متواضعة وسلسة؛ لأنها ستدرك أعماقك وتلامس داخلك المرهف ذاك.

كان هذا تمهيداً لأخبرك أيها القارئ عن بطل الحكاية ومحورها وهو أنت. من غيرك؟ ما إن تطفو إحدى الحكايات على السطح، حتى أجد صورها وأحداثها وتفاصيلها وكل متعلقاتها في بريدي.
أن يكون لديك جمهور في كل بقاع الأرض، يعني أن تحظى بشهود عيان دون بحث أو عناء.
فعندما يؤمن الملايين بمبدأ حب الخير وفعله وتطبيقه ومن ثم مشاركته، ستكون في غنى عن تلك الميزانيات المالية الضخمة التي تحتاج فيها إلى مراسلين ومصادر وتقارير وشهود عيان من أجل توثيق الحقيقة. هنا ستكتفي بسطر واحد من عدة كلمات ولن تجد من يُشكك في فحواه حتى لو

افتقر إلى التوثيق المرئي والمسموع والمصدر المعروف غير المتخفي. لكن ما الذي يجعل فلان من الناس يختارك دون غيرك ليشاركك معلومة مؤكدة حصل عليها بالقرب من موقع الحادثة؟ هناك أعداد هائلة من المشاهير تعج بهم المنصات وهم بدورهم يحظون بمتابعين من كل بقاع الأرض؟

إنه سؤال بديهي والجواب عليه سيدخلنا بمحور مهم آخر وهو الثقة .
فإن مشاركة معلومات حساسة ودقيقة قد تُعرض صاحبها إلى أذى مباشر أو مساءلات قانونية هم في غنى عنها. لكن شعور التمرد على هذه الظروف يمنحونه للقلة القليلة. وهي تلك التي تُشعرهم بالثقة المطلقة والمتبادلة وكأنهم يقولون نحن في أيادٍ أمينة. تماماً كثقتك بطبيبك المحترف عندما ترقد على فراش العمليات منتظراً جرعة المخدر قبل الخضوع لإحدى التجارب المرعبة في حياتك. لكنك على يقين تام أن صحوتك أكيدة ولن يصيبك منه ضرراً ولا سوءاً.

بطل حكايتي ومصدرها هو أنت، أنت المراسل، والمصور، والمعد والمقدم والمتلقي، أنت الضحية وأنت المشتكي، وهل من سواك؟

الفصل الخامس

قرار المواجهة

هل أحاول رسم الحقائق؟

شهد الوسط العربي مؤخراً انتشاراً واسعاً في ثقافة النقد بكافة المجالات، فعندما تتعمق بنطاق تجد جموعاً هائلة من النقاد يتفوقون عدداً على أبطال هذا المجال ونجومه. وبالرغم من كونها مؤشراً إيجابياً يعزز ثقافة الرأي والرأي الآخر داخل المجتمع، إلا أن عدد المؤثرين فيهم لا يتجاوز الأصابع الخمس لليد الواحدة. ما أريد أن أحدثكم عنه اليوم هو السبب حول ذلك، لماذا؟

في ظل وجود هذا العدد الكبير من النقاد والمنتقدين لماذا لا يرشدك فكرك الآن إلى اسم مؤثر من بين العشرات بل وحتى المئات الذين صادفتهم؟

كان هذا أحد التساؤلات الذي يتردد على مسامعي في كل مناسبة. فهو يجسد فضول الناس حول سر بروز هذه الشخصية الخفية دون غيرها متمتعة بهائل كبير من التأثير الخطير دون إظهار الملامح والأوصاف.

اذا كان الفضول يجتاحك حيال السبب الذي يجعلني محقاً في أغلب الأحيان، وتتساءل لماذا لم ينجح أحد بالتغلب عليه على الرغم من كل الحملات الجادة والكمائن الماكرة التي حاولوا بها الاصطياد دون جدوى.

فدعني أبوح لك بأحد الأسرار التي ستؤثر بك حتما بطريقة ما.

في يوم من الأيام قام أحد الأطباء بعمل تجربة علمية عن أضرار الخمر داخل مركز للمدمنين. وبينما كان المكان يعج بالحاضرين ممن يعانون من إدمان الكحول، أحضر الطبيب حوضين زجاجيين ملأ أحدهما بالماء والآخر بالخمر في كمية متساوية. فوضع داخل الماء دودة حية فسبحت به بهناء.

ولكي يصل إلى النتيجة المنتظرة، أمسك الطبيب بالدودة نفسها ونقلها إلى الحوض الآخر الذي يمتلئ بالخمر فتحللت وذابت. هنا وصل الطبيب إلى مُراده فسأل الحاضرين هل تلقيتم الرسالة؟

أجابوه نعم بالتأكيد، من يعاني من ديدان الأمعاء عليه بشرب الخمر ليقتلها .

هذا الطبيب ورغم عبقريته إلا أنه نظر للموضوع من بارادايمه الخاص ولم يحاول الخروج إلى بارادايم الحاضرين من المدمنين.

والبارادايم هو النموذج الفكري أو الإدراكي، وهو مجموع المعلومات والمكتسبات وكل المعتقدات التي تشكلت لدينا من خلال التجارب الشخصية والأنظمة التي عملنا فيها. وكل منا لديه بارادايم خاص به يرسم حدوده ويحدد تصرفاته وسلوكه بل وحتى قراراته في مواقف معينة .

يمكنك أن تتخيله كعدسة تنظر من خلالها لما حولك تحدد بصيرتك نحو الحياة ومفاهيمك عنها.

هذا يعني أنك ستتصرف في مواقف معينة بناءً على تجارب شخصية أكتسبت من مواقف سابقة أخرى.

لكن احذر، البارادايم قابل للخطأ والصواب. ففي بعض الأحيان ستنظر للأمور بغير حقيقتها. لأنك تستند باللاوعي على تجارب سابقة قائمة ربما على أخطاء لم تدركها بعد.

في إحدى الطرق المزدوجة والمنحنية كان أحد السائقين يقود عربته بسلاسة وفجأة اعترضت طريقة عربة أخرى قادمة من الجانب الآخر بأقصى سرعتها

حاولت القيادة باتجاهه. وعندما تدارك اللحظة وتخطاها بصعوبة حتى حاذاه السائق الآخر الذي دخل مساره، ففتح النافذة وصرخ في وجهه بأعلى صوت (حمار).

انزعج صديقنا من هذا التجاوز وهو بدوره التفت إلى الوراء ونعت الرجل بأبشع العبارات والشتائم وما إن إنتهى حتى فوجئ بحمار نافق أمامه مطروحاً على الأرض فأعاق طريقه، ولم يستطع تداركه فاصطدم به ولقي حتفه .

يوعز علم النفس الاختلاف بالتفسير هذا إلى بارادايم السائق الذي فسر كلمة حمار على أنها شتيمة بينما كان المقصود منها هو التنبيه لتفادي كارثة الحمار الذي كان ممدداً على الأرض معترضاً الطريق. لأن التجارب السابقة لهذا الشخص تفيد بأن مصطلح (حمار) كان يُستخدم للشتيمة فقط. حتى أصبح في الكثير من الأحيان يُفهم على هذا النحو من قبله.

فنحن أحياناً نرى الأمور بغير نصابها وهذه الحالة سُميت بالبارادايم لنستخلص منها حقيقة أن ما نراه ما هو إلا جزءاً صغيراً من كل كبير. وما نعرفه ونؤمن به ربما يكون أوهاماً خطيرة لا تمت للحقيقة المطلقة بأي صلة. وهنا نتذكر أقوال الحكماء الخالدين عندما حذروا من اتخاذ زاوية معينة للرؤية لأنها ربما تزيف الحقيقة بالكامل. فأحياناً تنظر من زوايا مختلفة لنفس المشهد وتجدها كلها صحيحة بحسب موقعك. ولا ننسى عاملاً مؤثراً وهو نحن بشر نمر بتغيرات مستمرة لقناعاتنا بسبب تعدد التجارب والقصص التي نمر بها وتلقي بتبعاتها علينا، فمن كنت تراه شجاعاً بالأمس سيصبح غداً أرعن لا يصلح سوى لبعض السلوكيات الطائشة.

فتغيير قناعاتك الراسخة بعد تجارب معينة، سيفتح عليك آفاقاً واسعة للمعرفة التي بدأت بالتحور شيئاً فشيئاً بعدما شهدت تصاعداً في مستوى الوعي والإدراك.

ما أؤكد عليه هو أن لكل منا حقيقة يؤمن بها. وكل هذه الحقائق هي صحيحة وإن تداخلت فيما بينها لا يعني بالمطلق أن يمس إحداها الآخر. وإذا كنت من رواد الفلسفة الوجودية ستفهم لماذا اختلف ديكارت مع أرسطو بعد قرون طويلة حين أكد أرسطو أن الحقيقة عبارة عن جوهر وصورة وأنه لا يمكنك الوصول إلى الحقيقة المطلقة إذا فصلت أحدهما عن الآخر. لأن معرفة الصورة أو (التمثل الحسي) تساعدك على فهم الجوهر. لكن ديكارت والذي ينظر للحقيقة بمنظور آخر، لا يعترف بالحسية، جعل الشك الوسيلة الوحيدة لبلوغ الحقيقة. لأنه وبحسب فلسفته، تتمكن من الوصول إلى الحقيقة إذا ما نفد لديك الشك في كل المعارف الموروثة.
ولا أخفي إعجابي بالفرنسي رينيه ديكارت الذي جعلني أردد مقولته الشهيرة ;أنا أفكر إذن أنا موجود وأسير على نهجها لسنوات طويلة. فالتفكير يعني خلق حقيقة خاصة بك تروج لها بنفسك من خلال حجج وبراهين تدعم رؤيتك. ومثلما علمتنا الفلسفة فإن الطرق التي تؤدي إلى الحقيقة كثيرة ومتعبة منها المألوف وغير المألوف. ويستطيع كل منا أن يبني أسساً سليمة تقوده إلى حقيقة جديدة يدافع عن مبادئها ويروج لفرضياتها العديدة والممكنة.

والآن أصبح بإمكاني أن أجيبك يا صديقي الفضولي عن سؤالك الذي استهلت به هذا النص. عن إيمانك المطلق بما أقول ودفاعي الشرس عن الأفكار التي أتبناها بحسم وبراعة. عن آرائي المجنونة التي أسطرها لتصلك كحقيقة ثابتة لا تقبل الشك إلا بنسب ضئيلة.

لكن قبلها، دعني أبوح لك بأحد أسراري التي قد تهدم في رأسك بعض المعتقدات الراسخة عني، أنا يا صديقي لا أعرف ماهي الحقيقة. وكل ما ذكرته عنها لم يكن سوى قصائص صورية صغيرة استجمعتها لتتشكل لدي صورة واضحة لمعالم للحقيقة المزعومة، وقد نجحت بجعلك تؤمن بالحقيقة التي استجمعتها وصورتها وقدمتها لك بطرائق ذكية تعلمتها من فلاسفتنا العباقرة. إذا كنت تتساءل عن سبب رفضك لحقائقهم وإيمانك بحقيقتي أنا دون غيري. فأنا يا صديقي تعلمت الدفاع عن معتقداتي وكل ما اؤمن به وهذا ما راق لك. لم يسبق أن أنقضت حقيقتي بنفسي. حرصت على جعلها ثابتة ومقدسة لا يمكن المساس بها مهما كانت الأثمان. ليس من أجل أن أضللك عن الحقائق الأخرى، ولكني أعيش مع مبادئي التي أستخلص منها الحقائق كما لو أنني أربي طفلاً صغيراً آملاً أن أجعله في المستقبل أحد السادة الواعظين المشار لهم بالبنان.

هكذا أكبر مع حقيقتي التي جعلت مني مصدراً آمناً لنشرها. لم يصب من قال إن الحقيقة واحدة. تعايشنا مع تجارب عديدة أثبتت أن للحقيقة وجوه عدة لك أن تنتقي ما يروقك منهم. ولكني لم أفعل ذلك لأن هذه الوجوه العديدة باتت مكشوفة للبشرية جمعاء لا تأتي بما هو جديد على المسامع

والأنظار. ولأني أحد محاربي النمطية التي تعزز الأفكار التقليدية الموجودة، ارتأيت صناعة عالم جديد متكون من حقائق مختلفة لم تُرَ لها وجوهاً دارجة من قبل. ولأننا يا صاحبي ننجذب نحو التجديد وكل ما هو جديد وغريب. شعرت بالانتماء إلي لإيمانك بأن شيئاً ما سينطلق من هذه الأفكار. وهذا ما حدث بالفعل. فإنك تقرأ كتابي الآن لإعجابك الشديد بفكري وأفكاري. لقد نجحت فعلاً بضمك إلى عالمي الذي أحدد فيه من يكون صائباً ومن يُرد خائباً. وعلى الرغم من اعترافاتي المخادعة هذه، إلا أن إيمانك بي لن تشوبه شائبة بعد الآن. لأن الأفكار الجديدة التي تُرسخ فيما بعد، لا تهترئ بسهولة. تماماً كمعتقداتك التي تربيت عليها منذ الصغر والتي تخشى أن تخالفها حتى في غفلتك.

لكن عليك أن تعي جيداً أن من يخلق حقيقة لنفسه وينشرها لإيمانه المطلق بصحتها، ليس كمن يزيف الحقيقة ويروج للأكاذيب عن معرفة ودراية.

أنت لم تنخدع، أنت فقط اتكلت على أحدهم وتركت له مساحة كافية للتفكير بدلاً عنك. واخترت أن تتبعه دون تحقيق أو تدقيق. أنت اخترت الطرق السهلة في الوقت الذي اخترت فيه أنا تلك الوعرة. النتيجة أنني صنعت رأي وأنت أيدته. أنا قدمت الحقيقة وأنت دعمتها. أنا حددتك بخياري التصديق من عدمه، بينما أنا عكسك كانت لدي العديد من الخيارات الممكنة واخترت منها ما يتناسب مع مبتغاي.

لستَ مخطئاً بالاتكال على من تؤمن به لسلاسة فكره وقوة آرائه، إنه خيار جيد إذا كنت ممن يعولون كثيراً على الآخرين ويرفضون الانسلاخ من الموجود. لكن جرب أحياناً أن تكون صاحب المبدأ والفكر، وإن كان على صعيداً متواضعاً. لأن بذلك فرص عظيمة ستنال ثمارها حتماً في أحد الأيام. وكما يقولون (اسأل مجرب ولا تسأل حكيم).

ولا تظن أن المهمة مستحيلة. جل ما تحتاج إليه لخلق فكرة جديدة هو البحث عن الهفوات. فإن أكثر الأمور كمالية وحبكة لا تخلو من الخطأ والزلات. إذا وجدت الهفوة، ستستخرج منها الفكرة المبدعة التي تساعدك على التفرد. هل سمعت عن ذلك الفتى الذي كان يعمل بالتنقل ما بين دولتين؟ حيث أخبروه أن ضرائب النقل مرتفعة على كل البضائع ما عدا محاصيل العلف. فصار ينقل العلف كل يوم على دراجة نارية لمدة طويلة دون أن يدفع للجمارك قرشاً. ليكتشفوا فيما بعد أنه كان يهرب الدراجات النارية في كل مرة نقل بها المحاصيل بالمجان. هو مثال جيد للبحث عن الهفوات واستغلالها لصالح أفكار عميقة أكبر. أنا بالطبع لا أحث على الاحتيال المادي والقانوني. الفكرة تشمل مظاهر أخرى. وهي خلق فرصة إبداعية من حقيقة ناقصة غير مكتملة.

وتذكر لا وجود للحقيقة المطلقة في هذا الكون. لأن كل منا يتمتع بباراديم خاص مبني على تجارب شخصية فريدة. وكلما تعددت البارادايمات، كلما زادت الاحتمالات المؤدية إلى الحقيقة. لكن احرص على تجديد بارادايمك

وتغييره لتواكب التغييرات من حولك. ولا تخجل من التراجع عن أفكار سابقة قمت بدعمها وتبنيها.

لأن الحقيقة كالنبتة تحتاج إلى سقي وتغذية وعناية فائقة لتنتقل معك إلى مراحل قادمة بهيئة جديدة مُستحدثة.

الثورة التي تسببت بأزمة الأخلاق

لو سألت خمسة أشخاص تعرفهم أو لا تعرفهم عن أهم ثورة في التأريخ البشري، لأجابك أربعة منهم الثورة الصناعية. إما الخامس ليس لأن له رأياً مغايراً، بل لأنه لم يسمع عنها من قبل. وهو أحد ممثلي الفئة التي سأحدثكم عنها اليوم. فإذا كنت هذا الشخص الذي يجهل أساسيات التاريخ والحياة، واصل معي لأنك ستكون المقصود في السطور القادمة.

قبل القرن الثامن عشر، كان أغلب الناس يعيشون في أرياف صغيرة ويعتمدون على محصولهم الخاص من الزراعة. وكان العمل فردياً على كل الأصعدة. فإذا احتجت إلى مسكن يأويك، يتوجب عليك بناءه بنفسك بمساعدة من حولك. وإذا كنت بحاجة إلى تغذية متنوعة فعليك زراعتها في حقولك لتقطف ثمارها عند الحاجة.
أما الملبس والأدوات فكانت الطبيعة هي من تتكفل بها. حتى الطرقات، لم تكن بملامح اليوم. فقد كانت وسائل النقل السائدة هي الحيوانات وعرباتها. وتلك تعد من معالم الرفاهية سيما أن الخيول كانت أسرع وسيلة نقل آنذاك لقطعها مئة ميل أي ما يعادل 160 كيلومتراً في اليوم الواحد.

تبدو لك حياة صعبة، لكن لو أعادوك لتلك الحقبة، صدقني أنك ستتعلم التعايش معها وأن واجهت صعوبة في ذلك. لكن ما لن تتأقلم معه هو طرق التواصل المعتمدة آنذاك. تخيل أن تنتظر أياماً وشهوراً ليصل مكتوباً غرامياً من معشوقتك التي تفتقدها كثيراً تحدثك فيه عن اشتياقها لسماع

أخبارك التي لا تدري عنها شيئاً منذ أشهر أو ربما سنوات. إنك لن تستطيع رؤيتها إلا وجهاً لوجه والطرق الممكنة للتواصل هي إرسال المكاتيب فقط وتناقل الأخبار عن طريق العابرين من المسافرين.

أما على المستوى الاجتماعي، فهو كما قرأناه في روايات جين أوستن حيث كان التعليم يقتصر على أغنى الأغنياء. لأن الطبقات الأخرى كانت تصارع الجوع والمرض من أجل البقاء على قيد الحياة. وإذا كنت أحد العاملين فهو لا شك عملاً شاقاً يبدأ منذ صياح الديك وينتهي قبل أن تنفد طاقتك بقليل.
لكن عندما أخترع المحرك البخاري نهاية القرن الثامن عشر، حتى اتخذت الحياة مجرى آخر. وهي آلة تستخدم قوة البخار لأداء عمل ميكانيكي بواسطة درجات عالية من الحرارة .
وهذا الاختراع أدى إلى تقليل الأيادي العاملة واستبدالها بالآلات الميكانيكية لتفادي الشد العضلي للبشر والعجز الجسدي والاعتماد على الحيوانات. لأن الآلة البخارية ساهمت بنمو كبير في صناعات الحديد ومنها السكك لغرض التنقل الآمن.

ولكن ما إن تدهور نمط الإنتاج التقليدي في الأرياف حتى بدأت الناس بترك أراضيها والهجرة إلى المدينة.
فشهدنا ظاهرة جديدة تسمى توسع المدن وتقسيم العمل. والنهضة الحقيقية بدأت من هذه الظاهرة. فقد أتى آدم سميث مؤسس علم الاقتصاد بفكرة عظيمة وهي أن تقسيم العمل يؤدي إلى زيادة في مهارة

العامل وبهذا يوفر الوقت اللازم في الإنتاج. وقد أعطى كمثال مصنع الدبوس.

يقول سميث إذا كنت تريد تصنيع دبوساً فسوف تقسم العمل إلى عدة فروع. كل منها يشكل تجارة معينة. عامل يسحب السلك، وأخر يقوّمه والثالث يخيطه والرابع يشحذه والخامس يستلم الرأس من النهاية. وبهذا تتشكل لديك عمليات مختلفة تحسن القوة الإنتاجية والمهارية. على عكس ما كان معمول به سابقاً فقد كانت الأدوات والأعمال التي تقام في المزارع مثل المحراث والمشط وآلة الحصاد والزراعة هي كلها عائدة لشخص واحد مما يتسبب بأخطاء كبيرة في الإنتاج، وضياع الوقت.

التفاصيل الصغيرة والتي تبدو لنا اليوم بديهية، هي من صنعت التاريخ وساهمت بإعادة ترتيب حياتنا اليوم.

فبعد الثورة الصناعية المشهورة هذه انطلقت في النصف الثاني من القرن العشرين ثورة الرقمنة. وهي ما يعرف اليوم بالإنترنت والمعالجات وأجهزة الحاسوب وعالم الاتصالات .

وبسبب الظروف السياسية في البلد فنحن لم نتعرف على ثورة الرقمنة ونلتمس أهميتها إلا بعد عام 2003.

وأتساءل أحياناً هل أنا أشد حظوة من غيري لأني واكبت عصر اللاإنترنت وشهدت الانتقالة الأهم على مر العصور؟ أم أنني ممن سيغضب عليهم التاريخ لاستبدالهم الحياة النقية البسيطة بثورة الشبكة العنكبوتية كما أحب أن أسميها؟

إذا كنت من جيل التسعينات وما سبقه. فحتماً ستذكر اسم كامل الدباغ ومؤيد البدري وأمل المدرس كوجوه رزينة ورصينة لا تخجل من مشاهدتها على شاشة تلفازك المتواضع ذاك. بل وتنتظر ظهورها طوال اليوم لإعجابك الشديد بالمنطق والمظهر واللسان. وعلى الرغم من الرقابة التلفزيونية الشديدة التي كان يتمتع بها البلد في تلك الحقبة، إلا أنني أجزم أنها لم تكن ذات تأثير على سلوكيات الإعلاميين والمشاهير حينها. لأنك ستلتمس الأدب والتهذيب والرزانة على أغلب المارة إذا لم نقل جميعهم .

ورغم احترامي الكبير للتطور والمتغيرات التاريخية والعلمية على مر العصور، إلا أنني افتقد العودة لما قبل عالم الإنترنت والحياة الدافئة البسيطة التي كنا نحظى بها. ليس للتكاتف الاجتماعي أو التجمعات الإنسانية الكثيرة والمناسبات غير المتناهية، قطعاً، فأنا لست من هواتها وأكافئ نفسي في الانطواء والانعزال مع موسيقى القيصر وأصوات بعض المطربين الشعبيين المهمين في ذلك الوقت أمثال حاتم العراقي ومهند محسن وصلاح البحر. لكني افتقدها لأسباب أخرى تتمثل جميعها بأخلاقيات الفرد العراقي التي طرأت عليها العديد من المتغيرات.

لم يسبق أن استقبلت مسامعي بعض العبارات الخادشة في أماكن عامة في البلاد من قبل روادها في ذلك الوقت. ولا يهم المكان الذي تتواجد فيه فاختلاف المستوى الأخلاقي لم يكن فارقاً يتشكل من منطقة إلى أخرى.

فكل الرقع الجغرافية كانت تتحلى بالأخلاق والنبل والشهامة بمستويات متفاوتة، لكنها حتماً حاضرة. وكأن قلبي يتفطر ألماً لما آلت إليه الأخلاق والمستويات الاجتماعية بعد ثورة الرقمنة اللعينة تلك.

لا أنكر أن ثورة الإنترنت خلقت جيلاً واعياً من نواحي عدة أهمها الاطلاع والاستكشاف وكأنها فتحت نافذة للعالم ننتفع من تجاربهم وثقافتهم وتطورهم في بعض المجالات. وتمكن بعض المبدعين من اتخاذ العالم الرقمي مشاريعاً مربحة لهم على الصعيد المادي. لكنها أجرمت بمجتمعاتنا الشرقية المتماسكة التي أصبحت مثالاً للانحلال والسقوط الإنساني قبل الأخلاقي. ولا أقصد بذلك ما يمس الحريات الشخصية منها الثياب والبروز الجسدي لأنه كان حاضراً في كل الحقبات لكنه لم يجد الوسائل المهتمة التي تقدمه للمتلقين (لاختلاف اهتمام المتلقي حينها). بل أخص بالذكر مستويات التحاور والتخاطب والظهور بأساليب مقرفة لا تتحملها المسامع والأبصار.

كل التجارب العلمية والاكتشافات ومنها الثورات التي تحدثنا عنها مسبقاً كانت لها انتقادات منطقية من قبل المهتمين والمختصين بهذه المجالات. وهذه السلبيات سُميت بالتأثيرات الجانبية التي تولدها هذه الحالات.
لكن ثورة الإنترنت أدت إلى أزمة أخلاق حقيقية ولا أرضى بأن تُصنف كتأثير جانبي والسلام.
لا تزال بعض الدول العربية والإسلامية حتى يومنا هذا تحارب المواقع الإباحية بحجبها عن الناس لمبادئ أخلاقية ودينية تسير على نهجها، لكنها

تُبقي على مواقع التواصل الاجتماعي التي أصبحت متاحة للجميع بمساوئها وقرفها متغاضية عن تأثيرها القوي وتوغلها داخل كل البيوت والعوائل .
لا أحمل فكراً ديكتاتورياً قمعياً، ولست مطالباً بتدمير كل الأقمار الصناعية التي تبث لنا الشبكات الاتصالية أينما كنا. لكني أخشى أن نندثر يوماً كالديناصورات ونترك خلفنا كل هذه الترهات الموثقة والخالدة. ولم نجد من يبكي خلفنا فما من أثر طيب يُذكر ولا إنجاز. ولا أخفيكم سراً، أشعر وكأننا عار على البشرية جمعاء فلم يسبق للأجيال السالفة أن تمسكت بالسراب وقذفت الأمجاد .
كنت أظن أن بعض الأفراد الضالين لا يمثلون الجماعة الواعية. وأغلب الأشكال المخجلة التي نستفتح بها كل صباح ونختتم بها المساء، ما هم إلا رعايا مساكين لم يحسنوا العيش باجتهاد فوجدوا وسيلة شرعية لنشر انفلاتهم ليكونوا حالة عامة لا تقبل الشذوذ.

وإن كنت لا تزال تتساءل عن الشخص الخامس الذي صادفته ولم يذكر لك شيئاً عن الثورة الصناعية لأنه لا يعي حدوثها حتى اليوم، فهو منهم لا محال .
لأن من يعاني من انفلات أخلاقي ومن يتخذ مهاراته في السفاهة والوقاحة وسيلة للوصول إلى قاعدة جماهيرية كبيرة، ولا يستثمرها بطرق محترمة ورزنة، فهو حتماً أحد الجهلة الحمقى الذين لا يعون ما في الوجود.

بلد العميان

قصة خيالية كتبت عام (1904) تحكي عن مجموعة من المهاجرين من البيرو الذين فروا من طغيان الإسبان وبينما هم في طريقهم نحو مستقبل مجهول حدثت انهيارات صخرية في جبال الأنديز أدت إلى انعزالهم بالكامل عن العالم الخارجي. فقد شكلت هذه الانهيارات وادٍ غامض انتشرت فيه عدوى نادرة أصابتهم جميعاً بالتهاب العيون مما أدى ذلك إلى إصابتهم بالعمى الدائم .

ومنذ ذلك الحين انقطعت صلتهم بالخارج فلم يزرهم زائر ولم يغادروا قريتهم قطعاً. وتوارثت الأجيال هذا المرض جيلاً بعد جيل حتى أصبحت القرية بأكملها دون مبصرين.

في يومِ ما وبينما كان نيونز يمارس هوايته بتسلق الجبال والاستكشاف، انزلقت قدمه فسقط في الوادي الذي لم يسمع أحد عنه من قبل. ولحسن الحظ أن نيونز لم يصب بالأذى رغم الارتفاع الشاسع لأنه وقع على العروش الثلجية لأشجار القرية. لكنه صُدم بما رأى. فقد كانت ألوان طلاء المنازل صارخة وفوضوية وأنها بُنيت بدون نوافذ. لم يستغرق طويلاً حتى حل نيونز اللغز: لا بد أن يكون صاحب البناء أعمى.

فبدأ يتجول في القرية بقدمين يعرجان من شدة الألم والسقوط وينادي على أهاليها. فلاحظ اقترابهم منه لكنهم لم يكونوا ينظرون إليه رغم مرورهم من جانبه. وهنا عرف صديقنا أنه في بلد العميان.

أخذ نيونز يحدثهم عن نفسه ومن أين أتى وكيف وجدهم؟ والأهم أنه يبصر. ولكن ما معنى يبصر؟ كيف له أن يشرح الأمر لمن يعاني من العمى على مدى خمسة عشر جيلاً؟ وأنه آتٍ من بلاد جميع من عاش فيها مبصرين. وما إن بدأ بهذه المهمة حتى أصبحوا يتحسسون وجهه وعيونه مندهشين ويطرحون العديد من الأسئلة ولكنهم اتهموه أخيراً بالجنون والهذيان.

كان يظن نيونز أن في بلد العميان يصبح الأعور ملكاً. لكن ذلك لم يكن إلا اعتقاداً خاطئاً كاد أن يكلفه حياته.
فقد كان سكان القرية يرونه أقل شأناً منهم لأن هذا العضو الغريب الذي يحمله في وجهة وتلك الأجفان المتحركة لم تكن سوى لعنة أفقدته عقله.
ومن أجل أن يرتقي نيونز إلى مكانة العميان، لأنهم يرونه أقل مرتبة منهم، قرروا غرس أيديهم في عيناه لاقتلاعهما. لكنه تمكن من تسلق الجبال والفرار. وبقي يتساءل كيف يمكن أن يكون العمى اكتمال والبصر إعاقة؟

كنت ولا أزال أومن بهذه القصة التي يمكنك أن تستخلص منها ما تشاء من العبر والدروس. فهي لم تكن حكاية عابرة من ضمن المئات التي تملأ مكتبتي. عاش فكرها معي لسنوات عديدة. كان السلاح الذي أحارب فيه بصف الأفكار الصحيحة التي لا تجد من يؤيدها أو ينصرها. هي ذلك الطريق الوعر الذي يوصلك إلى نهاية النفق بسلام عكس الآخر الذي يمدوه لك بالورود ولن تجد في آخره ما تبتغيه .

يعاني المرء بطبيعته من شيئين، أولهما ابتكار آراء شاذة وجديدة لا تروق للمجتمع، وثانيهما تقبلها ومحاولة التكيف معها. في العادة لا يجتمع هذين النقيضين معاً. فإما أن تكون أنت صاحب الفكر الجديد، وإما ذلك الآخر الذي يرفضه ويحاربه. إما أن تكون نيونز المكتشف المبصر، وإما القروي الأعمى المنطوي على عالمه المظلم ذاك. من المحال أن تصالحهما معاً في دواخلك المنسجمة.

لا أزال أذكر ردة فعلي عندما سافرت بقطار حديث يربط بين بغداد وإحدى محافظات الجنوب ولا أبالغ في حديثي أن أخبرتكم أن حماسي في استكشافه والتمعن في تفاصيله كان يفوق فرحة الوصول سالماً إلى وجهتي المقررة. عجبت لجمال ما رأيت وبعدما توجهت إلى حجرتي الخاصة داخل القطار التي أرشدوني عليها،
جلست إلى جانب النافذة أتفقد المناظر المؤسفة والمؤلمة التي كانت تمر من جانبي. حيث المنازل المهترئة التي كانت أشبه بأعشاش العصافير، والسلالم المتدلية من كل منزل تفصل بين مسكن وآخر. تلك التقسيمات الفوضوية التي أجرمت بجمال العاصمة وأفسدت علي متعة التمعن بملامحها الجميلة. فكيف لك أن تتواجد داخل الحداثة والجمال المطل على القباحة الهرمة في آن واحد .
اخترت الهروب من محيط النوافذ التي أفسدت عليّ جمال العربات الحديثة التي استقليت قطاراً لأجلها، وما إن أبهرت بالتصاميم الداخلية والأغطية النظيفة حتى فوجئت بثلاثة شبان كانوا قد اتجهوا قبلي إلى منطقة المدخنين وهم يرمون أعقاب سجائرهم على الأرضية اللامعة المفروشة

بأجود أنواع السجاد الفاخر. ولشدة دهشتي وقفت ساكناً لم أقوَ على الاعتراض. فقد كانت من المشاهد المألوفة التي لا تجد في العادة من يعترض عليها. لأنها موجودة. في القطار أو المركبات العامة أو حتى في الشوارع والبيوت. موجودة والسلام. ولهذا فإن عقولنا تماشت على تقبل الأفعال السلبية وكأنها اعتيادية ليس بها ما يخل بالآداب أو الذوق. لأننا لا نقابلها بالانتقاد أو الاعتراض. بل نواجهها بالقبول والطبول.

ولا يمكنني أن أصف لكم مدى ألمي ومعاناتي حالما أتذكر ذلك الصرح الرائع في مدينتي البائسة والذي يسمى بالقطار السريع. تلك التجربة النادرة تحولت إلى شبح يطاردني لا أقوى على تجاوزه منذ ذلك الحين. لقد كنت مذنباً لأنني كنت في ذلك الموقف أحد سكان بلد العميان الذين حدثتكم عنهم سلفاً. تقبلت حالة سلبية لكونها سائدة وتأقلمت معها دون صد أو معاناة. لم أنحنِ لألتقط أعقاب السجائر تلك وأنبتها في وجه رامِيها. واصلت تدخين سيجارتي حتى نفدت دون مقاومة أو إرشاد. هل تتساءل عن السبب الذي جعلني أتردد في ذلك؟ ببساطة لأنني لم أود أن أكون الحالة الشاذة في ذلك المحيط .

أن يسخر مني أحدهم لأني أطالبه برمي مخلفات سيجارته في الطفاية المخصصة لذلك التي لم تكن تبعد عنهم سوى بضعة سنتميترات. خشيت أن يقولوا انظروا إلى هذا المغفل الذي يفعل كل ما يُطلب منه ويُطبق كل ما يؤمر به.

كنت أنا الجبان نيونز الذي استسلم للعميان في معركته معهم وغلبته الكثرة على الرغم من أحقيته عليهم.
هذه التجارب وما على شاكلتها ولَّدت في داخلي ثورة نائمة لو عرفوا بها لقالوا لعن الله من أيقظها.
لطالما تصارعت مع ذاتي لائماً نفسي على المواقف التي كنت محقاً بها ولم أحارب في سبيلها. اتخذت نيونز مثالاً ولم أكن مصيباً كثيراً في ذلك. فهو أطاع الكثرة ورضخ للواقع المفروض عليه. فشل في الإطاحة بالباطل ولم يكمل مهمته في مناصرة الحق كما يتوجب. عندما أنظر إليه كنت أراه لبيباً داهية لأنه استطاع أن ينجد نفسه من الهلاك ولم يأبه لما بعده. وكأنه يقول أنا والطوفان من بعدي. ولكني بعد مرور كل هذه التجارب،
أدركت أنه نجح في إنقاذ نفسه ولكنه أثناء ذلك أجرم بأجيال عديدة لن تبصر النور بسبب فعلته الأنانية الثائرة.

أن تنسلخ من أفكار وعقائد مخطئة ولكنها ثابتة، ربما يكون أصعب ما قد تواجهه في دُنياك، وما يزيد صعوبتها هو وجودها في المجتمعات المتماسكة والمترابطة. والسير عكس التيار يتطلب شجاعة وقوة تحمل وصبراً جميلاً يشبه ذلك الذي يتمتعون به الأنبياء المرسلين. أن تعيش في محيط متين ووطيد يؤازر كبيره صغيره، قويه وضعيفه، يعني أن يُشار إليك بأصابع الاتهام على كل معتقد جديد ومنبوذ تطرحه للعلن.

تعلمت من القصة القصيرة لبلد العميان أن الهروب يساعدك على تخليص نفسك من الهلاك. ولكنه يهلك أجيالاً كاملة من بعدك. وإن كانت الهزيمة نصف المرجلة كما يقولون، فإن المواجهة هي المرجلة بأتمها.

ومن هذا المنطلق تبددت لديّ فكرة الهروب أو التجاهل وتعززت عندي كل الأفكار المختلفة للمواجهة.

لم أبدأ بمواجهة أصدقائي أو زملائي في العمل أو حتى من يشاركونني السقف ذاته. بل بدأت من مجتمع أعرف عنه الكثير ولا يعرف عني شيئاً قليلاً. هنا تجسدت العبقرية بأبهى صورها.

أذكركم بقصة القطار الذي رموا فيه الشبان أعقاب سجائرهم وعن سببي بالهروب من المواجهة.

وهي أنني كنت أخشى أن أصبح رمزاً للاستقامة في مجتمع الاعوجاج والالتواءات.

وقراري في نقد مجتمع أحدب يميل نحو المنحدرات الخطرة بلا هوية أو أوصاف، جسّد تلك العبقرية المختلقة.

فلم أعد أخشى أصابعهم وهم يشيروا بها نحوي معلنين عن انحرافي الحتمي. لأنه ليس أمامهم ما يشيروا بأصابعهم إليه. إنه سراب، فراغ، خيال واهم لن يصلوا إليه.

تعلمت من قصتي هذه ألا احترم بطل حكاية بلد العميان. لأنه لم يكن يوماً أنموذجا يحتذى به. لم يكن أمام نيونز خيارين إما نفسه، أو الآخرين كما اعتقدت. ولست أومن أن الحياة تقدم لنا خيارين لا ثالث لهما. لأن ثالثهما

موجود وإن كان غير متاح في المحيط الذي تكافح فيه. عليك أن تسعى وتجتهد وتغير وجهتك ربما، لتتقابلان.
وها أنا ذا كان لديّ خياران. إما أن أشهد الفعل المسيء وأتقبله كما فعلت مع هؤلاء الشبان، أو أن أخرج عن المألوف وأصبح الحالة الشاذة في هذا المجتمع المتعسف. ولأن الخيارين لا يروقان لي، قررت أن أضيف ثالثاً لهما. أن أتصدى وأعارض دونما أحاسب أو أنبذ، بلا هوية أو ملامح.

وبعدما عجزت عن جعل ثلاثة شبان يعاودون التقاط نفاياتهم من أرضية القطار، أطلقت بعد سنين أكبر حملة تنظيف على مواقع التواصل الاجتماعي في عموم البلاد شارك بها الآلاف من المواطنين. ولا أدري إن كان من بينهم هؤلاء. لكني تخلصت بفضل هذا من شعور الأسى الذي كان ينتابني منذ ذلك الحين وحتى موعد انطلاق الحملة والعمل الفعلي.

إياك أن تؤمن أن الحياة عادلة، وأنها تضع أمام الجميع قدر متساوٍ من الفرص والتحديات. لذا عليك أن تكون يقظاً في كل المراحل التي تخوضها لتغتنم منها ما يلائمك. قصصت لك حكايتين. الأولى تجسد معاناة نيونز مع الأغبياء من العميان والثانية قصتي أنا التي رفضت أن تكون نهايتها كالأولى. والآن دورك أن تستلهم منهما ما تشاء لتسطر لنا حكايتك الخاصة التي قد تغير من الاشياء الوضيعة الكثير والكثير .
أنا على يقين أنك التالي.

الفصل السادس

انجُ بنفسك

صناعة الأغبياء

كان أحد أساتذتي الأفاضل يقول إن عقل الإنسان أشبه بالعضلة، كلما مرنته أصبح أقوى وأكثر دهاءً من ذي قبل. ومنذ ذلك الحين وأنا أتساءل. هل غباء الإنسان حالة وراثية أم أنه سلوك فردي اجتهادي؟

ولحسن الحظ أن هناك من العلماء الفضوليين ممن انتابهم ذات التساؤل فقرروا الإجابة عليه بإحدى التجارب المثيرة. حيث وضعوا خمسة قرود في قفص واحد ووضعوا سلم وسط هذا القفص. وفي نهاية السلم علقوا الكثير من الموز. وكان كلما صعد أحد القرود إلى نهاية السلم للحصول على الفاكهة، رشوا العلماء الماء البارد على القرود الأربعة المتبقية. وهو شعور مزعج غير محبب لدى القرود. فصار كلما صعد أحد القرود على السلم من أجل الموز، تقوم القرود بضربه ومنعه من التسلق حتى لا يتم رشهم بالماء البارد.

بعد مدة من الوقت لم يجرؤ أي قرد من المجازفة ويأخذ الموز على الرغم من كل المغريات المتاحة خوفاً من الضرب المبرح .

ثم قام العلماء باستبدال أحد القرود القدامى بقرد جديد. وأول ما قام به القرد الجديد هو تسلق السلم من أجل الحصول على الموز. وقبل أن يصل إلى مبتغاه، تعرض إلى الضرب من قبل أقرانه القرود في كل مرة يقوم بها بهذا الفعل. فهم القرد الجديد أن عليه ألا يأخذ الموز لكنه لا يعلم ما السبب.

قرر العلماء أن يأتوا بقرد جديد آخر ويزجوا به بديلاً عن أحد القرود القدامى. وحل به ما حل بمن سبقه. وحتى إن القرد البديل الأول شارك زملاءه الثلاثة بضرب البديل الثاني وهو لا يدري لماذا يفعل ذلك.

استمر العلماء بزج قرود جديدة واستبدالها بالقديمة حتى أصبح لديهم خمسة قرود لم يُرشوا بالماء البارد أبداً.

ولكنهم بالرغم من ذلك كانوا يضربون كل قرد يصعد السلم. ولا يعرفون لماذا يفعلون ذلك.

لو سألنا القرود لماذا تقومون بضرب كل من يصعد السلم لقالوا لا نعلم ولكن هذا ما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا.

ويعد هذا النموذج أبرز طريقة لزراعة الأفكار العقيمة والتي تؤدي إلى صناعة أناس جهلة ليثمروا عن مجتمع جاهل بالكامل لا تقوم له قائمة فيما بعد.

كانت هذه أبرز معاناتي مع الشريحة التي خاطبتها لسنوات عديدة دون معرفة شخصية متبادلة. لا أبالغ عند القول إنني عانيت نفسياً من استقبال أفكار مقتبسة وإجابات معتادة لا يعلم أصحابها لماذا يرددونها على ألسنتهم في كل مرة، تماما كتلك القردة المغفلة التي تضرب كل من يصعد السلم من أصدقائها ولا تعلم لماذا تفعل ذلك حتى يومنا هذا.

تواجه صعوبة أحياناً في تقديم مفاهيم جديدة للمقربين منك فما بالك إذا خلقت أفكاراً جديدة بالكامل وأخذت على عاتقك مهمة تعميمها على

شريحة كاملة من المجتمع فيها العالم والمتحضر ونظيره الجاهل الأبلة ومختلف الأصناف التي تتوسطهما.

ولكني في الحقيقة لم آخذ على خاطري من كل تلك المتاعب والمطبات التي وجدتني قبل أن أصادفها. لأنها حالة عمومية يعاني منها كل من ينثر البذور على التربة لحصد ثمار مستقبلية. ما إن تبدأ بنشر فكر جديد لم يسبقك به أحداً غيرك، حتى تشتد السهام وتكثر أعدادها صوبك ليقتلوا كل ما (لم يجدوا عليه آباءهم وأجدادهم). أذكر في بداياتي عندما كان الانتقاد محرماً على بعض الشخصيات البارزة والتي أصبحت اليوم، أي بعد مرور أربعة أعوام على بدء المشوار، محط للسخرية والتهكم وكأن الغشاء المقدس الذي كان يغطي هذه الشخصيات ويزيدها حرمةً وقدسية قد تلاشى أخيراً. فلم يعد هنالك ما يمنع أو يحول بينك وبين أفكارك الحرة التي تعارضهم في أفعالهم وأقوالهم على حد سواء .
لم يعد هناك من يشاكسك بالقول: كيف تعترض على فلان الفلاني أيها الأبلة؟ أين أنت عنه؟ ومن أنت لتفتي فيما يخصه؟

ولا أخفيكم بأنني أشعر عند سماعي لأحدكم وهو يُسير على نهجي، بأن لي حصة كبيرة في ذلك. وإن كُنت لا تدرك أنك سائرٌ على نهج أحدهم وتساهم بنشر أفكاره ومبادئه دون دراية بعد أن تأثرت بها وتغلغلت في أعماقك، لأنه أمر بديهي. فإنك حينما تشتري من البقال ما تحتاجه من الفاكهة والخضروات وتسأله على السعر الإجمالي، لن تتذكر وقتها اسم المعلم الذي علمك الحساب في صف الأول الابتدائي. والمفارقة العجيبة أنني مع معلمك

كلانا لسنا ممن ينتظرون التبجيل والتطبيل فيما فعلنا. لكن الذات البشرية تحتاج إلى ما يشعرها بأنها مثمرة ومنتجة مختلفة عن غيرها من سائر البشر. وهذا ما ينتابني عند تصفحي لمختلف المنصات والأخبار وأجد الأفكار التي كانت يوماً ليست سوى قصص زائغة غريبة الأطوار متعشعشة في رأسي يستنكرها الجميع، منتشرة بكل مكان يتناقلها العامة كجزء مهم من أفكارهم التي تحاكي وعي مجتمع انتفض على نفسه ونفض من عليه غبار السنين الميتة التي لا يروق لنا استذكارها.

وبعد أن أتممت هذه التجربة المعقدة والشاقة دعني أهمس لك الآن بأن الخروج من قفص أي فكرة جاهزة أو مفروضة من قبل المجتمع أو التقاليد القديمة هو أصعب بكثير من الإتيان بفكرة غريبة جديدة وفرضها على الناس. في الحالتين سيختلف عليك من حولك لكن الفرق أن صاحب الفكرة الجديدة في العادة ليس لديه الكثير ممن حوله ليختلفوا عليه. بينما الآخر فهو ينسلخ من الجموع الكبيرة التي هو فرداً هاماً منها ويصبح ذلك الغلام الهالك الذي خالف العقائد والضوابط والإرث الموروث.
هذا يعني أن الخروج من قفص القردة الخمسة والسير عكس قواعدهم هو أصعب بكثير من استبدال السلم بأرجوحة مسلية تُنسيك أمر الموز ومعاناته.

كيف أصبح مثقفاً؟

سمعت هذا السؤال من مخاطبي على مدى أربعة أعوام أكثر من سماعي لجملة (كيف حالك؟) ولهذا التساؤل عدة أبعاد سيفسر لك بعض الأسباب التي جعلت فضولهم ينصب في هذا الجانب. أهمها أننا نحيا في عصر السرعة والاستجابة، فما إن تتساءل حول شيء ما، حتى توجهك بواطن عقلك إلى محركات البحث المتعددة لحله. لأن تطفلك حول أمر معين يسترعي طرح سؤال بسيط عنه، من أجل الوصول إلى إجابة وافية. لكن هل تُحل جميع التساؤلات بهذه الآلية؟

لو كانت كذلك لوجهوا هذا السؤال إلى محركات البحث الافتراضية أولاً قبل أن يوجهونه لي. و أنا كعادتي أجد في كل مرة صعوبة في الإجابة عليه. لأنني عندما يتعلق الأمر بالآلية التي يعمل بها عقل الإنسان وطريقه تفكره واستفراده في الأمور المعقدة، لا أشجع على كتابة جملة بسيطة في خانة التحري والضغط على زر (ابحث) أعني أن الأمر لا يجب أن يكون بهذه البساطة قطعاً.

لو سألتني عن أبرز جريمة ارتكبت بحق الشعب العراقي لتركت الحروب والحصار والمجازر والحكومات ونقص الخدمات والفساد بكافة أنواعه وأجبتك من دون تحفظ، التعليم .

ألم تقل اليابان إن سر تطورنا هو تقديسنا للكتاب بدل السلاح؟ وإن المعلم لدينا يأخذ راتب وزير وحصانة دبلوماسي وإجلال إمبراطور؟

لم أجد في ذلك مبالغة حتى وصل بهم الأمر أن ينصح الأب ابنه بترك سبع خطوات بينه وبين معلمه حتى لا يخطو فوق ظله، لأن في ذلك قلة احترام وبخس في التقدير.

يعتمد العراق على واحدة من أسوأ الأنظمة التدريسية في العالم وأكثرها غباءً وفشلاً وأقلها نفعاً وفائدة. وأنا هنا لا أحدثكم عن نقص المستلزمات الدراسية أو إهمال المدارس والبنى التحتية التابعة لها لأنها أصبحت من الموروثات. أخص بحديثي المناهج التدريسية التي تبدأ من الصف الأول الابتدائي وتنتهي بمختلف درجات الدراسات العليا.

عند دراستي في إحدى الدول المتطورة وبعدما غاب معلم مادة الرياضيات لأسباب مرضية وأتت الإدارة بواحدٍ غيره. سألت معلمي الجديد: أستاذ، لماذا تأتينا بكتاب رياضيات جديد ونحن لا نزال بنفس المرحلة التي كنا بها مع من سبقك؟ أجاب: لأنه لا يوجد أفضل من كتاب تعده بنفسك .
في الحقيقة لم أفهم ما تمتم به ولكني بعد سنوات أدركت أن وزارات التربية والتعليم في البلاد المتطورة تطرح منهاجاً ثابتاً لكل المراحل الدراسية وتعطي الفرصة للمعلم بأن ينشأ كتابه الخاص الذي يدون فيه ما يروقه من القصص والأمثال ليستخدمها مع طلابه. لأبسطها لك قليلاً. تفرض عليك الحكومة في لائحة الإنجاز جدول الضرب الحسابي للصف الأول الابتدائي، لا يهمهم كثيراً كيف تعلمه لتلاميذك أو بأي طريقة تقوم بذلك. ما يعنيهم حقاً هو أن ينجح تلميذك إلى الصف الثاني وهو يعرف حساب جدول الضرب، الذي فرضوه عليك سلفاً.

وهذه الآلية أعطت فرصة لكل المعلمين بتدريس طلابهم بطرق تشبههم وغالباً ما تكون ممتعة ومسلية. تخيل أن تفتح كتاب القراءة وتجد أن القصص والأمثلة تحوي اسمك برفقة زملائك في الصف. وينقلب الدرس المتشنج الجدي إلى فسحة للمزاح والنقاشات المتبادلة والتي تنمي من قدراتك الحوارية. هذا ما يحدث عندما يقوم المعلم بكتابة منهجه بنفسه ويعدل عليه كل عام فيما يتناسب مع ضيوفه الجدد.

في المقابل أتيحت لي الفرصة ذات يوم بالجلوس مع إحدى الصديقات التي كانت تعمل مدرسة علوم في إحدى المراحل المتوسطة في بغداد. كانت بيدها حزمة من الأوراق التي يتوجب عليها تصحيحها. يبدو أن اختباراً ما قد حصل قبل يومين من لقائي بها. وياليته لم يحصل. بينما كانت أوراق الامتحان في حُجرها، كان أيضاً على بُعد منها كتاباً مفتوحاً يبدو أنه يحوي الأجوبة الصحيحة للأسئلة الموجودة داخل أوراق الامتحان. تخيل معي عزيزي القارئ أن أربعين طالب أجابوا على سؤال واحد بنفس الصيغة والإملاء. حتى إن مكان الفوارز وعلامات الترقيم الأخرى كلها موجودة مستنسخة على الأوراق المختلفة في الأربعين نسخة كلها، تخيلت؟
إذن دعني أزيد على ذلك، إن الكتاب الذي أخذوا منه هذه الإجابة هو بالواقع كتاباً مُعمماً على هذه المرحلة في كل مدارس العراق. مما يعني أن الببغاوات الأربعين ليسوا سوى عينة بسيطة من ملايين الببغاوات الأخرى التي لا ذنب لها في هذه المجزرة التعليمية.

هذه الأساليب الخاطئة في التعليم تقتل الأفكار الإبداعية والمختلفة لدى الفرد وتجعله يفكر باتجاه واحد مفروض عليه مسبقاً. وبهذا فإن التشابه في الأفكار والآراء ليس سوى نتيجة حتمية لا مفر منها. والتعليم العراقي يعد واحداً من أهم أساليب صناعة الأغبياء الذي تحدثنا عنه سلفاً. بل إنني أزيد عليه وأجزم أن التعليم بهذه الآلية لا يصنع لك جيلاً غبياً فحسب، بل يخلق لك أقاطيع صماء بكماء وعمياء لا تقوى على إعادة ترتيب نفسها وإن انفجرت في أعماقها ألف ثورة وثورة.

أجبني أنت الآن، كيف تصبح مثقفاً في حين لم سبق لك أن فكرت من قبل؟ أليس التفكر هو أول ما تنشأ عليه فطرة الإنسان؟ كيف يصبح مثقفاً من اعتاد على كتابة جواباً يشاركه به جميع أقرانه وليس معظمهم؟ وهو لا يعيه من الأساس. وربما يتساءل أحدكم الآن هل يعني (أبو الأصفر) أننا جميعاً أغبياء لأننا تشاركنا ذات المصير الدراسي ونفس المعاناة؟

من حُسن الحظ أن الثقافة لا تقتصر على الشهادة أو المشوار الدراسي فقط. هناك عشرات الطرق الأخرى التي بإمكان المرء أن يزيد من إمكانيات نفسه بنفسه من خلالها. ولا يحتاج بذلك إلى حكومة راشدة أو مناهج مكثفة.

وربما يتساءل أحد آخر الآن: إذن لماذا حدثتنا عن كل ما مضى إذا لم تكن الدراسة باباً للثقافة؟ لأنك كعراقي يا صديقي ستحتاج إلى جهود مضاعفة لتعويض الفقر التدريسي الذي عانيت منه. لو افترضنا أن المتعلم ضمن

نظاماً تدريسياً حديثاً يحتاج إلى خمسة كيلومترات من أجل الوصول إلى حدود الثقافة، فإنك ستحتاج إلى مئة وخمسة كيلومترات أخرى للوصول إلى ذات النقطة. لكنك في النتيجة سوف تستطيع من الوصول إذا ما أردت تحقيق ذلك.

والجواب الذي لن تتمكن من إيجاده في محركات البحث ولا حتى في الكتب العلمية المعقدة هو أبسط بكثير مما اعتقدت هو الاطلاع، هو التخلص من الأفكار المفروضة على ذهنك التي حُبكت طيلة مشوارك الدراسي بعناية وإصرار، هو نبذ الأحكام الملغومة التي زرعوها داخل رأسك ومحاولة التوجه إلى أضدادها ومضاداتها وفهمها على حد سواء. الطريق نحو الثقافة لا يكون سيراً على الأقدام، ولا باستخدام عربة تنتقل بك من محلة إلى أخرى تلف وتدور حول الرقعة الجغرافية ذاتها. بل هو أن تحلق بجناحين إلى السماء ولا تشعر بثقل أفكارك أو عبء باطنك؛ لأن النظر من السماء يعني الرؤية الشمولية لكل ما لم تشاهده بحيادية وشفافية كهذه من قبل.
سترى أن الخباز الذي اعتدت أن تذهب إليه والذي اعتقدت لا بديل عنه في منطقتك، ليس سوى واحداً من المئات الذين يشبهونه أو يختلفون عنه وأنك لن تفهم هذا التشابه أو الاختلاف إذا لم تجرب الآخرين.

التذكرة التي تحتاجها للدخول من بوابة الثقافة هو أن تنفرد بنفسك وتتعلم كيف تفكر في المألوف وغير المألوف، في الحرام والحلال، في الممنوع والمرغوب .أن تقول لمدرستك ومجتمعك وبيتك كفى حان دوري لأخاطب نفسي، لأنجو بنفسي.

يعتقد الكثيرون أن قراءة الكتب هي ما تجعلك مثقفاً أو عليماً بكل المجالات. وهذا يُذكرني دوماً بأحد المغفلين الذي كان قد قرأ مئة وعشرين كتاباً في حياته متباهياً بها ولم يكن أي منها ذات فائدة جسيمة. بل على العكس كان معظمها ملغوماً انفجرت داخل محيطه وقتلت مئات الأبرياء بعد أن أصبح أحد أكبر المتطرفين في عصره.

هذا يعيدنا إلى النقطة الأولى، إن إبداع أفكارك وتألقها هي من تقودك نحو الثقافة قبل كتابك أو شهادتك. إذا كنت تتبنى أكثر الأفكار إجراماً واسوداداً فلن تمضي قدماً. تأكد أن تكون أفكارك النابعة عن تجارب ومعلومات ونصائح قابلة للتطور والاستمرارية لأنك ستبثها إلى الآخرين. الذين بدورهم لن يتوالوا عن نشرها ومدها لطبقات أوسع لتنتشر دوافع جديدة معلنة عن ولادة أفكار حديثة تقلب الأسود أبيض داخل المجتمع. احرص على أن تكون واسع الآفاق لا تؤثر به سياسات القمع أو التوجيه الفكري الذي يفرضونه عليه في كتبهم الشائكة. وتذكر كعراقي أنك إذا ما أردت أن تصبح مثقفاً، عليك أن تبذل جهوداً مضاعفة من التي يبذلها غيرك. لأن التخلص من أفكار عقيمة أصعب بكثير من ولادة فكر جديد. وهي في كلا الحالتين، مهمة صعبة في بلاد الكبت والتدميغ.

الفصل السابع

بزوغ اللوحة

رقصة التانغو مع الشتيمة

مررت بتجربة نادرة لا تصادف الجميع ولأنني من هواة العلوم الاجتماعية والنفسية، فقد حظيت بعينة شاملة متعددة الطبقات من المجتمع العراقي، والتي لو حظي بها أكبر العالمين في هذا المجال، لجعلوا منها مصدراً آمناً لاستخراج التجارب والفرضيات العلمية ولفهمنا حينها أكثر عن المجتمع الذي نعيش فيه وبعض من خباياه.

كنت أعاني بشدة من التعامل مع هذه الحشود الغفيرة من الناس. تخيل أن يصبح لديك بين ليلة وضحاها ملايين
المتابعين المتأثرين بأدائك وما تقدمه. لكنك إذا ما أردت مخاطبتهم فستفعل ذلك بقلم واحد، ولغة واحدة تصلهم جميعاً من ذات المدخل على الرغم من اختلافاتهم الواسعة والمتعددة على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي والثقافي.

نختار أصدقاءنا بالعادة بناءً على أسس معينة وأهمها يتعلق بالبيئة والتأثيرات الفردية والمهارات الاجتماعية.
نميل إلى اختيار من يشبهنا من الناس ويتقارب معنا بوجهات النظر والأنشطة المختلفة والأحداث الحياتية وربما أهمها الرقعة الجغرافية، لذلك تجد أن أغلب المجتمعات منغلقة على نفسها، يُصعب اختراق الطبقات الاجتماعية المختلفة فيها والتي يرتكز ترتيبها على الحالة المادية والثقافية وباقي الاعتبارات الملموسة الأخرى.

وأنا كالجميع أحظى بشبكة اجتماعية تتناسب مع مؤهلاتي وإمكانياتي والبيئة التي نشأت فيها. لم يسبق لي أن خرجت من هذا الإطار الذي فُرض عليَ من قبل عدة عوامل لم أخترها أنا. ولعل هذه التجربة هي الوحيدة من نوعها التي أجبرتني على التعامل مع أناس لم أعتقد يوماً أنني سأخاطبهم.

خاصمت نفسي مراراً وتكراراً وعاقبتها عدة مرات لأني أجبرت على مخاطبة من أترفع عن مخاطبتهم لانعدام أوجه التشابه بيننا. فإن معظم الأسماء البارزة التي سلطت الضوء عليها، لم تكن سوى مخلفات بيئية وأخلاقية لم أكن لأواجهها في حياتي يوماً ولم يكن ليجمعنا طريقاً واحداً حتى لو اجتمعت ألف صدفة لتحقيقه. وإن مواجهتها بهذه الطريقة وبصفة مجهولة، كان بمثابة العقاب الإلهي على ذنوب صغيرة ارتكبتها في حياتي ولا أزال أفعــل.
لم يكن لدي تفسيراً آخر عن هذا الابتلاء الذي لم أجد له مفراً أو مخرجاً.

أتساءل أحياناً لو ظهرت بهويتي الحقيقية التي اجتهدت كثيراً في العمل عليها هل كنت أخاطب بها هؤلاء الذين أستنكر مخاطبتهم واجد في ذلك إذلالاً لأفكاري وقيمتي. لم أكن أفعل حتماً.
إن إخفاء الشخصية هو ما دفعني إلى تجربة عدة أمور لم تكن من ضمن التجارب المخطط لها.
تعلمت من قوانين الإيجابية أن نستثمر كل الظروف الصعبة ونستخرج منها نتائج إيجابية تأتي بالنفع علينا.
فبدأت أرى أن المضي بهكذا تحديات صعبة ما هو إلا صقل الإمكانيات، ومخاطبة من ينعدم أدبهم وضميرهم والمعروفين بالتزييف والتحريف بفنون

الرد المحترم وفرضه عليهم، وعدم النزول إلى المستويات التي يحاولون جرك إليها، ليست سوى واحدة من المهارات العظيمة التي لا يملكها الجميع والتي لم أكن أعلم يوماً أنني أجيدها لعدم تواجدي في أوساط غريبة الأطوار كهذه من قبل .

وهنا أيقنت أن لغة الشارع السائدة والتي تفتقر إلى الاحترام والأدب، هي من صنيعة فقراء الأخلاق. لأن الرد بالمثل على الشتيمة لا يجيده إلا من فقد أخلاقه قبل منطقه وثقافته .

وتوجد هناك ألف طريقة وأخرى للرد بحزم على من يحاول أن يجعل لغة السب والشتم هي السائدة مع الترويج المباشر لمبرراتها المفلسة.

ولهذه الأسباب وما شابهها، أتلقى العديد من الأسئلة المتكررة حول السر الذي جعلني صامداً متمسكاً باللغة المهذبة والمحتشمة التي لم أعريها يوماً بكلماتي في ظل غزو مفردات الخلاعة والفسوق. فكانت إجابتي المعتادة هي (لم أنشأ في الملاهي والبارات) لأن اللغة الفاحشة والبذيئة كانت تنبعث سابقاً من هذه الزوايا، أما اليوم فأصبحت تنطلق من ألسُن الصغار قبل الكبار ومن الشوارع العامة التي كانت سابقاً إحدى النوافذ المحترمة التي تطل على المجتمع العراقي الراقي.

ليس سهلاً أن يقول لك أحدهم تباً لك فتجيبه بشكراً لك أيضاً. ولا أخفيك أن الأمر يحتاج إلى صبر هائل من أجل الوصول إلى نقطة اللامبالاة من مفردات قاسية تُضرب في وجهك قبل أن تُقال. لكن ردود الفعل هذه هي السبيل الوحيد لإيقاف سيول جارفة من انعدام الأخلاقيات والسلوكيات الرذيلة التي تُدعم بالتعميم والانتشار.

ماذا يحدث إذا ما أجبنا جميعاً بتباً لك أيضاً؟ وماذا سيكون جواب المتلقي على شتيمة قوبلت بأخرى؟
هل سيكتفي؟ أم يزداد حماساً وإصراراً للتفنن بمفردات فظة أخرى؟ وهكذا يُخلق جيلاً جاهلاً تُحرّكه شتيمة وتقعده نميمة. ومن يخالفهم الروتين، يصبح من المتكبرين الفلاسفة الذين يبحثون عن الكمال وكأن الثقافة والأدب أصبحا من معالم الرفاهية وليست من المتطلبات الأساسية في كل المجتمعات.

جرب أن تتعامل مع الشتيمة بمراوغة حريفة. فأنا أرقص معها رقصة التانغو الشهيرة، أراوغها والتف عليها مثل لبلابة، أتلقاها مثل سهم وأعجنه في حركة سريعة ورشيقة؛ ولأني أرقص التانغو مع الشتيمة لم تنجح الأخيرة في اسقاطي أرضا، هذا هو فن التحايل على البذاءة دون التورط بها.
هذا ما يجب أن تكون عليه. أن تستقبل الشتيمة وترد عليها دون أن تلجأ إليها.
تعلم أن تشتم من دون شتيمة؛ لأن من يملك سمواً روحياً يخلق بذكاءه ماكنة جديدة لإيصال الأفكار دون اللجوء إلى طرق رذيلة.

أن ترد الصاع باثنين يعني أنك من المفلسين فكرياً، لا تختلف عن الأغبياء الذين يستسهلون الكثير من الرذائل لانحسار بدائلهم .
راوغ، ابرم، ودور مع الصعاب وحافظ على القوة والفضيلة فهي المنتج الأصيل للأفكار السامية دوماً.

أنا VS أبو الأصفر

هل تعلم أن الجزء الأكبر من نجاح القصة أو الرواية يعتمد على طريقة حبك الكاتب للشخصيات المختلفة التي تظهر في كتابه. وهذه المهمة قد تأخذ أعواماً طويلة من أجل إتمامها. فليس بالضرورة أن يُجسد الكاتب شخصية معينة في كتابه هو يعرفها بالأساس، وليس واجباً عليه أن ينقل إحدى الهويات الواقعية إلى عالم القصص والخيال.

دعني أخبرك أن أغلب الأبطال الذين تعشقهم في الكتب وتغوص في تفاصيلهم ليسوا سوى أوهاماً نجح خيال الكاتب في خلقها وجسدها في صورة تميل إلى الواقع القريب. فأحببتها وتعلقت بها وربما زارتك في منامك لينتقل تأثيرها من الصفحات الورقية إلى العالم الخارجي.

والآن أسألك عندما يختلق الكاتب سبع شخصيات مختلفة يناقض إحداها الآخر في رواية واحدة.

هل يعني ذلك أن جميعها تشبهه أو تنتمي إليه؟ أو أنها تمثل إحدى الشخصيات القريبة من محيطه وماضيه؟

قطعاً لا؛ لأننا في العادة نميل إلى الشخصيات المميزة والغامضة التي لا تشبه الآخرين. ولو غاصت الروايات بمن يشبه المملين ممن أعرفهم من حولي لما قرأت واحدة منها على الإطلاق.

ما الذي يميز بطل قصة لا يفعل شيئاً في يومه سوى الأكل والشرب والنوم كما يفعل معظمنا؟ ولا يحظى بشيء من الجنون والهلوسة والاختلال؟ ولماذا يضطر الكاتب العاقل والحكيم لإضافة القليل من الاضطرابات المتعددة على شخصيات روايته؟ حاول أن تجد الجواب قبل أن أجيبك عليه.

يؤسفني أن أقول لكم إن النقاط المشتركة التي تجمعني بشخصية (أبو الأصفر) معدودة جداً.
فأنا عندما قررت الخوض بهذا المشوار أصبحت ذلك الروائي الذي يخطط على الورق كيف يصبح بطله وماذا يُلبسه ويسميه؟ هو يحدد إذا ما كان له الكثير من الإخوة الصالحين أو الجيران المعاكسين. هو يقرر إذا ماكان يعشق ميسي أو غريمه كريستيانو رونالدو .

خلقت عالماً متكاملاً يسع لهذه الشخصية يبعد كثيراً عن عالمي الذي أقنط فيه. حتى أفكارنا التي ندافع عنها مختلفة، لكننا نتشارك بشيء ما وهو ذات الفلسفة الحياتية العميقة. أي أننا ننظر إلى نفس الصورة الكبيرة ونختلف بالنظر باتجاه مشتقاتها الصغيرات.

يعيش (أبو الأصفر) في بغداد ويعاني يومياً من سير الحياة هناك. هو يعلق في الزحام تحت درجات عالية من الحرارة. ويعود مرهقاً أخيراً إلى المنزل، ليجد كارثة حقيقية في انتظاره، ينقطع التيار الكهربائي لأنه تجاوز الحد الأقصى من الأمبيرات المخصصة له. فيهرع مسرعاً إلى أبو المولدة الماكر الذي يحاول الاحتيال عليه في كل مرة، يُسوي الأمر معه ليعود إلى المنزل باحثاً عن حمام بارد يكسر به تلك الحرارة اللاهبة. ولسوء الحظ، عادة ما يجد خزان المياه أحر من اللهيب أو نافداً .
يقرر أخيراً أن يأخذ قيلولة يقتل بها تعب الصباح، فتشاركه فيها تلك الحشود الكبيرة من الذباب المشاغبة الذي لا تأخذها به رحمة ولا رأفة.

أنا أبعد عنه آلاف الكيلومترات. أذهب في السابعة صباحاً إلى عملي الذي يبعد عني بضع دقائق فقط.
عند خروجي في الخامسة عصراً، أمر إلى إحدى المقاهي القديمة والتي لو جلست في شرفتها الخارجية لشعرت أنك تحيا في العصر الفيكتوري حيث المباني القديمة والزخارف الأثرية التي تزينها. حتى فناجين القهوة كأنها وصلت إلى راحة كفي بعدما عاشت كل تلك العصور الطويلة والبعيدة .
ادخل شقتي البيضاء التي ينقصها الكثير من الضوضاء والألوان، أعد عشائي بنفسي وهكذا ينتهي يومي بدون مصائب أو مفاجآت.

يمتلك (أبو الأصفر) عقلية راجحة تتوسط الاثنين: إفراط الغرب في نصرة الحرية الشخصية واستقتال العرب على التمسك بتقاليدهم منها المتخلفة. يؤمن (أبو الأصفر) أن العادات والتقاليد هي جزء مهم من الهوية الثقافية،

ونحن كمجتمع شرقي لا يجب أن نتشبه بالمجتمعات الغربية إلا بما يتناسب مع ثقافتنا الإسلامية.

لا يشجع (أبو الأصفر) على التعري الجسدي الفاضح؛ لأنه يعد اللباس أحد أهم معالم الثقافة في المجتمع، ويتوجب احترام التقاليد السائدة في المكان الذي تعيش فيه، لكنه في الوقت ذاته لا يحرض على معاقبة السائرين عكس التيار أو قمع الحريات الشخصية واستخدام القوة لفرض هذه الأخلاقيات. هو يسعى إلى الحفاظ على ما تبقى من الهوية الشرقية في المجتمع وتطعيمها ببعض الحريات الغربية التي لا تؤثر على طمس الثقافة الإسلامية ومنها حرية التعبير والرأي.

أنا هنا أختلف جذرياً عنه؛ وذلك لأني نشأت في مجتمع غربي بحت علمني أن اللباس لا يروي كثيراً عمن يرتديه ولا يحكم على أخلاقه أو الطريقة التي يحيا فيها.

إن الاستماع إلى الموسيقى العالية والعودة إلى المنزل في وقت متأخر من الليل وتكوين صداقات متعددة من كلا الجنسين، ليس سوى وسيلة لتحديد نمط الحياة ولا دخل له بفساد الأخلاق أو سوء التربية.

أشاركه الرأي في احترام العادات التي يحيا عليها مجتمع ما، لكنها تبقى قناعة شخصية لا أحبذ فرضها.

فهناك من ولد داخل مجتمعات مظلمة لماذا يكون مضطراً على تحمل سوادهم إذا ما أرادت روحه أن تحيا بطريقة نيرة أخرى؟

فهل للمجتمع الحق بفرض أنماط معينة للعيش فيها؟

يقول (أبو الأصفر) إنه يسلط الضوء على المخالفات السلوكية لبعض المشاهير عبر مواقع التواصل الاجتماعي لأن القانون هناك يستثني بعض منهم أحياناً، وجعل بعض القضايا رأياً عاماً يتداوله الجميع ما هو إلا قصاصاً إلكترونية بديلاً عن القانون الذي لم يتم تسويته في أكثر الحالات.

أما عني فأنا مع القانون دوماً، ولا أجد سبباً مقنعاً يجعلني ألجأ إلى غيره أو أحيد عنه.

ولكني أتفهم أحياناً أن القانون يجب أن يؤخذ بقوة إذا ما أعطي برحابة صدر وإن كان بطرق أخرى.

يمتلك (أبو الأصفر) جوازاً عراقياً للسفر، وعندما يحين موعد تمديده، فإنه يدور في متاهة لعدة أشهر حتى هو لا يعلم كيف دخل بها ومن أين الخلاص.

تعتمد معاملته على توقيع بسيط من أحد الموظفين العاديين، لكن الأمر ينتهي به إلى عراك واشتباكات تدور لأشهر طويلة؛ لأنه يرفض إعطاء الرشوة أو تقديم واسطة من أجل تمديد جواز سفره الذي يكون في المرتبة الثانية كأسوأ جواز سفر في العالم.

أما أنا، فأمتلك جواز سفر يحل في المرتبة الثانية كأفضل جواز سفر في العالم. وإصداره في أي لحظة ولا يستغرق سوى بضع دقائق ولا يكلفني سوى ضغطة زر من لوح هاتفي الذكي. لم أزر يوماً دائرة الجوازات ولا أدري إن كان هناك فيها تدافعاً بشرياً واشتباكات عنيفة تشبه تلك التي يواجهها (أبو الأصفر)؛ لأني أجد جوازي في اليوم التالي في بريد المنزل بعد الطلب الإلكتروني ولم تسنح لي الفرصة حتى اليوم بزيارتهم في تلك الدائرة التي أجهل سبب تشييدها وإدامتها وإنفاق الكثير من الأموال عليها.

يشجع (أبو الأصفر) ريال مدريد أما أنا فأشجع برشلونة. لكننا شجعنا الأرجنتين في مونديال قطر. ربما من أجل البشت العربي والراحل ماردونا.

يميل (أبو الأصفر) إلى اللون الأصفر؛ لأنه يرتبط بمشاعر السعادة الإيجابية ويرمز إلى التركيز والذكاء، والبروز، ولأنه من الألوان الأكثر وضوحاً فهو يُستخدم أيضاً للتحذير وجذب الانتباه .
أما أنا فأحب الأخضر؛ لأنه لون العشب الذي رسمته مراراً وتكراراً في كل لوحة طلبوها مني في درس الفنية في الصف الأول الابتدائي، ولأن (الله أكبر) في علم بلدي كُتبت بنفس اللون.

لا يجيد (أبو الأصفر) التقاط الصور لنفسه؛ لأنه لا يحظى بمن يرسل إليه هذه اللقطات. فهو شخص مخفي لا يعرفه إلا نفسه.

أما أنا فأقضي وقت طويل على المرآة في تصفيف شعري واختيار ثيابي بعناية وإتقان.

يقتني (أبو الأصفر) في كل عام أكبر ذاكرة جهاز ذكي يصدر حديثاً؛ لأن صندوقه الأسود والذي يخفي فيه كل الأدلة والقصص والأسرار يكبر مع مرور الوقت، ويتطلب ذاكرة عالية لا تتركه في منتصف الطريق .
أما أنا فأكتفي بالـ(256) غيغا بايت خاصتي، تكفيني لسنوات طويلة.

في هذا العام سيبلغ (أبو الأصفر) ثلاثين ربيعاً، أما أنا فأصغره بقليل.

يدافع (أبو الأصفر) عن المرأة وقضاياها؛ لأنه يعشقها، أما أنا فأفعل ذلك لأنها أنا.

النهاية

الآن.. وبعدما وصلنا الى المحطة النهائية من رحلتنا.. يبدو أن ملامح (أبو الأصفر) او بعضاً منها أصبحت ظاهرة لديك.

هل تجرؤ على تدوين ما عرفته عني في هذه الصفحة؟

ما الذي أحببته في هذه الشخصية المثيرة وبماذا صُدمت؟

في اي فصل من الكتاب بالضبط شعرت انه عليك التوقف عن القراءة على الفور؟ أم أنك قررت الاستمرار دون توقف؟ .

لا تنس ان تشارك افكارك معي.. دونها هنا وبدوري سأقرأها وأناقشها معك.

توقيع

صديقك

أبو الأصفر

فهرست

المقدمة 7

الفصل الأول

ما قبل الولادة 13

الفصل الثاني

التطعيم الأول..... 30

الفصل الثالث

هل تعرفهم؟ 46

الفصل الرابع

أنت بطل 62

الفصل الخامس

قرار المواجهة 72

الفصل السادس

انجُ بنفسك. 96

الفصل السابع

بزوغ اللوحة 117

النهاية 120